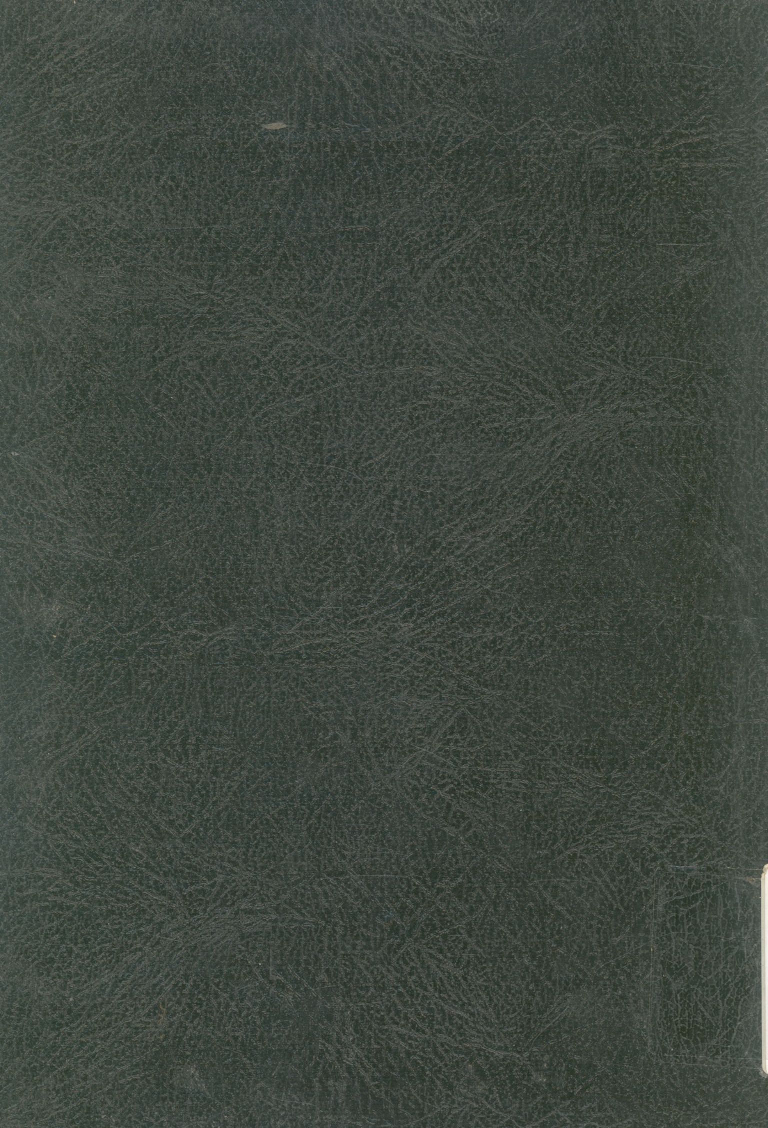


كتاب الشعب



تفسير القرطبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

خيركم من تعلم القرآن وعلمه

حديث شريف

٣٩

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني القاهرة ت : ٣٨٨٤٠

اذا كان «القرطبي» سيجلد في مجلد واحد فتنزع هذه الورقة

قوله تعـالى : ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ نصب على النعت للنـداء، وهو رب ؛ وهو نداء مضاف ؛ والتقدير : يارَبِّ ! ويجوز أن يكون نداء ثانيا . والفاطر الخالق ؛ فهو سبحانه فاطر الموجودات، أى خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء، ولا مثال سبق؛ وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة »[1] مستوفى ؛ عند قوله : « بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » وزدناه بيانا فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى. ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي ﴾ أى ناصرى ومتولّى أمورى فى الدنيا والآخرة. ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ يريد آباءه الثلاثة ؛ إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فتوفاه الله — طاهرا طيبا صلى الله عليه وسلم — بمصر ، ودفن فى النيل فى صندوق من رخام؛ وذلك أنه لمـا مات تَشاحَّ الناس عليه ؛ كلٌّ يحبّ أن يدفن فى مَحَلَّتهم ، لِمـا يَرجون من بركته ؛ واجتمعوا على ذلك حتى هَمُّوا بالقتال ، فرأوا أن يدفنوه فى النِّيل من حيث مَفرِق المـاء بمصر ، فيمرّ عليه المـاء ، ثم يتفرّق فى جميع مصر ، فيكونوا فيه شَرَعا ففعلوا ؛ فلما خرج موسى ببنى إسرائيل أخرجه من النِّيـل ، ونقل تابوته بعـد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس ، فدفنـوه مع آبائه لدعوته : « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » وكان عمره مائة عام وسـبعة أعوام . وعن الحسن قال : أُلقى يوسف فى الجبّ وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ، ثم جُمع له شمله فعاش بعـد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ؛ وكان له من الولد إفرائيم ، ومنشا ، ورحمة ، زوجة أيوب ؛ فى قول ابن لَهِيعة . قال الزهرىّ : وولد لإفرائيم — ابن يوسف — نون بن إفرائيم ، وولد لنون يوشع ؛ فهو يوشـع بن نون ، وهو فتى موسى الذى كان معه صاحب أمره ، ونبأه الله فى زمن موسى عليه السلام ؛ فكان بعده نبيا ، وهو الذى افتتح أَرِيحاء ، وقَتل من كان بها من الجبابرة ، واستوقفت له الشمس حسب ما تقدّم فى « المـائدة »[2] . وولد لمنشا بن يوسف موسى بن منشا ، قبـل موسى بن عمران ؛ وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذى طلب العالم ليتعلم منـه حتى أدركه ، والعالم هو الذى خرق

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٦ وما بعدها طبعة ثانية .

(٢) راجع جـ ٦ ص ١٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية

السفينة، وقتل الغلام، وبنى الجدار، وموسى بن منشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ ؛ وكان ابن عباس ينكر ذلك؛ والحق الذى قاله ابن عباس ؛ وكذلك فى القرآن . ثم كان بين يوسف وموسى أمم وقرون، وكان فيا بينهما شعيب، صلوات الله عليهم أجمعين .

قوله تعالى . ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٤)

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ نوحيهِ إليك ﴾ خبر ثان . قال الزجاج : ويجوز أن يكون « ذلك » بمعنى الذى، و « نوحيه إليك » خبره؛ أى الذى من أنباء الغيب نوحيه إليك؛ يعنى هو الذى قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار الغيب « نوحيه إليك » أى نعلمك بوحى هذا إليك . ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أى مع إخوة يوسف ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ فى إلقاء يوسف فى الجب . ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ أى بيوسف فى إلقائه فى الجب . وقيل : « يمكرون » بيعقوب حين جاءوه بالقميص ملطخا بالدم ؛ أى ماشاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ظن أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون ، فلم يؤمنوا ؛ فنزلت الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ أى ليس تقدر على هداية من أردت هدايته؛ تقول : حَرَص يَحرِص، مثل: ضَرَبَ يَضرِب . وفى لغة ضعيفة حَرِص يَحرَص مثل حَمِد يَحمَد . والحِرْص طلب الشىء باختيار .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ «مِن» صلة؛ أى ما تسألهم جُعْلا . ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أى ما هو؛ يعنى القرآن والوحى . ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أى عظة وتذكرة ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال الخليل وسيبويه : هي « أيّ » دخل عليها كاف التشبيه وبُنيت معها ، فصار في الكلام معنى كَمْ ، وقد مضى في «آل عمران»(1) القول فيها مستوفى . ومضى القول في آية «السموات والأرض» في «البقرة»(2) . وقيل : الآيات آثار عقوبات الأمم السالفة؛ أي هم غافلون معرضون عن تأملها . وقرأ عكرمة وعمرو بن فائد « وَالْأَرْضُ » رفعا ابتداء ، وخبره « يَمُرُّونَ عَلَيْهَا » . وقرأ السدّي « وَالْأَرْضَ » نصبا بإضمار فعل ، والوقف على هاتين القراءتين على « السموات » . وقرأ ابن مسعود « يمشون عليها » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ نزلت في قوم أقرّوا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يعبدون الأوثان ؛ قاله الحسن ومجاهد وعامر والشعبي وأكثر المفسرين . وقال عكرمة هو قوله : «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» ثم يصفونه بغير صفته ويجعلون له أندادا ؛ وعن الحسن أيضا أنهم أهل كتاب معهم شرك وإيمان، آمنوا بالله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يصح إيمانهم؛ حكاه ابن الأنباري . وقال ابن عباس : نزلت في تلبية مشركي العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك . وعنه أيضا أنهم النصارى . وعنه أيضا أنهم المشبّهة ، آمنوا مجملا وأشركوا

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٤٢٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(2) راجع جـ ٢ ص ١٩٢ وما بعدها طبعة ثانية .

مُفصّلا. وقيل : نزلت فى المنافقين؛ المعنى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ » أى باللسان إلا وهو كافر بقلبه؛ ذكره الماوردى عن الحسن أيضا . وقال عطاء : هذا فى الدعاء؛ وذلك أن الكفار ينسون ربهم فى الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا فى الدعاء؛ بيانه : « وظَنُّوا أَنَّهم أُحِيطَ بِهِم » الآية . وقوله : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ » الآية؛ وفى آية أخرى « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » . وقيل : معناها أنهم يدعون الله ينجيهم من الهلكة، فإذا أنجاهم قال قائلهم : لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللص، ونحو هذا؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان، ووقايته منسوبة إلى الكلب .

قلت : قد يقع فى هذا القول والذى قبله كثير من عوام المسلمين؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وقيل : نزلت هذه الآية فى قصة الدُّخَان ؛ وذلك أن أهل مكة لما غشيهم الدُّخَان فى سِنِي القَحط قالوا : « رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » فذلك إيمانهم ، وشركهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب ؛ بيانه قوله : « إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » والعود لا يكون إلا بعد ابتداء؛ فيكون معنى « إلا وهم مشركون » أى إلا وهم عائدون، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : مُجَلِّلة[(1)] . وقال مجاهد : عذاب يغشاهم؛ نظيره « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » . وقال قتادة : وقيعة تقع لهم . وقال الضحاك : يعنى الصواعق والقوارع . ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ يعنى القيامة . ﴿ بَغْتَةً ﴾ نصب على الحال، وأصله المصدر . وقال المبرد : جاء عن العرب حال بعد نكرة؛ وهو قولهم : وَقَعَ أمرهم بَغْتَةً وفَجْأَةً؛ قال النحاس : ومعنى « بغتة » إصابة من حيث لم يتوقع . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وهو توكيد . وقوله « بغتة » قال ابن عباس : تصيح الصيحة بالناس وهم فى أسواقهم ومواضعهم، كما قال : « تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » على ما يأتى .

---

(١) مجلّلة : عامة التغطية

قوله تعالى : ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ ابتداء وخبر؛ أى قل يامحمد هذه طريقى وسنّتى ومنهاجى؛ قاله ابن زيد . وقال الربيع : دعوتى . مقاتل : دينى ، والمعنى واحد؛ أى الذى أنا عليه وأدعو إليه يؤدّى إلى الجنة . ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أى على يقين وحقّ؛ ومنه : فلان مستبصر بهذا . ﴿أَنَا﴾ توكيد. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ عطف على المضمر. ﴿وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ﴾ أى قل يامحمد : «وسبحان الله» . ﴿وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يتخذون من دون الله أندادا .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ هذا ردّ على القائلين : «لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» أى أرسلنا رجالا ليس فيهم آمرأة ولا جنّىّ ولا ملَك؛ وهذا يردّ ما يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن فى النّساء أربع نبيّات حوّاء وآسية وأمّ موسى ومريم". وقد تقدم فى «آل عمران» (1) شىء من هذا. «مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ» يريد المدائن؛ لم يبعث الله نبيّا من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو ؛ ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم . قال الحسن : لم يبعث الله نبيّا من أهل البادية قطّ، ولا من النّساء، ولا من الجنّ . وقال قتادة : «مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ» أى من أهل الأمصار؛ لأنهم أعلم وأحلم . وقال العلماء : من شرط الرسول أن يكون رجلا آدميا مدنيا ؛ و إنما قالوا آدميا تحرّزا، من قوله : «يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ» والله أعلم .

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴾ إلى مصارع الأمم المكذّبة لأنبيائهم فيعتبروا . ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ابتداء وخبره . وزعم الفراء أن الدار هى الآخرة ، وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ ، كيوم الخميس ، و بارحة الأولى ، قال الشاعر

ولو أَقْوَتْ عليكَ دِيارُ عَبْسٍ[(1)] * عَرَفْتَ الذُّلَّ عِرْفَانَ اليقينِ

أى عِرْفانا يقينا ، واحتجّ الكسائىّ بقولهم : صلاة الأولى ، واحتجّ الأخفش بمسجد الجامع . قال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال ، لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعرّف به ، والأجود الصلاة الأولى ، ومن قال صلاة الأولى فمعناه : عند صلاة الفريضة الأولى ، و إنما سميت الأولى لأنها أوّل ما صُلّى حين فُرضت الصّلاة ، وأول ما أظهر ، فلذلك قيل لها أيضا الظُّهر . والتقدير : ولدار حال الآخرة خير ، وهذا قول البصريين ، والمراد بهذه الدار الجنة ، أى هى خير للمتقين . وقرئ « وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ » . وقرأ نافع وعاصم و يعقوب وغيرهم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾[(2)] تقدّم القراءة فيه ومعناه . ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم . وهذا الباب عظيم ، وخطره جسيم ، ينبغى الوقوف عليه لئلا يزلّ الإنسان فيكون فى سواء الجحيم . المعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالا ثم لم نعاقب أممهم بالعقاب « حتى إذا استيأس الرسل » أى يئسوا من إيمان قومهم « وظَنُّوا أَنَّهم قد كُذِّبوا » بالتشديد ، أى أيقنوا أن قومهم كذّبوهم . وقيل المعنى : حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كَذَّبوهم ، لا أَنَّ القوم كذّبوا ، ولكن الأنبياء ظنّوا وحسبوا أنهم يكذّبونهم ، أى خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شكّ ، فيكون «وظنّوا» على بابه فى هذا التأويل . وقرأ ابن عباس وابن مسعود وأبو عبد الرحمن السُّلَمىّ وأبو جعفر بن القَعْقاع والحسن وقَتادة وأبو رَجاء العُطارِدىّ وعاصم وحمزة والكسائى ويحيى بن وَثّاب والأعمش وخَلَف « كُذِبُوا » بالتخفيف ، أى ظنّ القوم أن الرسل كذَبوهم فيما أخبروا به من العذاب ،

(1) وفى رواية : «فإنك لو حللت ديار عبس» . (2) راجع ص ٣٤٢٢ من هذا الجزء .

ولم يصدقوا . وقيل: المعنى ظنّ الأمم أن الرسل قد كَذَبوا فيما وعدوا به من نصرهم . وفى رواية عن ابن عباس؛ ظنّ الرسلُ أن الله أخلف ما وعدهم . وقيل : لم تصح هذا الرواية؛ لأنه لا يَظنّ الرسلُ هذا الظنّ ، ومن ظنّ هذا الظنّ لا يستحق النصر؛ فكيف قال : ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ؟ ! قال القُشَيرىّ أبو نصر : ولا يبعد إن صحّت الرواية أن المراد خطر بقلوب البشر هذا من غير أن يتحققوه فى نفوسهم؛ وفى الخبر: " إن الله تعالى تجاوز لأمتى عما حدّثت به أنفسها ما لم ينطق به لسانٌ أو تَعمل به " . ويجوز أن يقال : قربوا من ذلك الظنّ؛ كقولك : بلغت المنزل ، أى قربت منه . وذكر الثعلبىّ والنحاس عن ابن عباس قال : كانوا بشرا فضَعُفوا من طول البلاء، ونَسُوا وظنّوا أنهم أُخلِفوا؛ ثم تلا : « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله» . وقال الترمذىّ الحكيم : وجهه عندنا أن الرسل كانت تخاف بعد ما وعد الله النصر ، لا من تهمة بوعد الله، ولكن لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثا ينقُض ذلك الشرط والعهد الذى عهد إليهم؛ فكانت إذا طالت المدة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه . وقال المهدوىّ عن ابن عباس : ظنّت الرُّسل أنهم قد أُخلِفُوا على ما يلحق البشر؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى » الآية . والقراءة الأولى أولى . وقرأ مجاهد وحميد — «قَدْ كَذَبوا» بفتح الكاف والذال مُخَفّفا ، على معنى : وظنّ قوم الرسل أن الرسل قد كَذَبوا، لما رأوا من تفضل الله عزّ وجلّ فى تأخير العذاب . ويجوز أن يكون المعنى : و [لما] أيقن الرسل أن قومهم قد كَذَبوا على الله بكفرهم جاء الرسل نصرنا . وفى البخارىّ عن عُرْوة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عزّ وجلّ : « حتى إذا آستيأس الرسل » قال قلت : أكُذِبُوا أم كُذِّبوا ؟ قالت عائشة : كُذِّبوا . قلت : فقد آستيقنوا أن قومهم كذّبوهم فما هو بالظن؟ قالت : أَجَلْ ! لعمرى ! لقد آستيقنوا بذلك ؛ فقلت لها : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا » قالت : معاذ الله ! لم تكن الرسل تظنّ ذلك بربها . قلت : فما هذه الآية؟ قالت : هم أتباع الرسل [الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم ، فطال عليهم البلاء ، وآستأخر عنهم النصر حتى إذا آستيأس الرسل][1]

(١) الزيادة من صحيح البخارى .

ممن كذّبهم من قومهم ، وظنّت الرسل أن أتباعهم كذّبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك .
وفى قوله تعالى : «جاءهم نصرنا» قولان : أحدهما ـ جاء الرسلَ نصرُ الله ؛ قاله مجاهد .
الثانى ـ جاء قومَهم عذابُ الله ؛ قاله ٱبن عباس . ﴿ فَنُجِّىَ مَنْ نَشَاءُ ﴾ قيل : الأنبياء ومن آمن معهم . وروى عن عاصم «فَنُجِّىَ مَنْ نَشَاءُ» بنون واحدة مفتوحة الياء ، و «مَنْ» فى موضع رفع ، ٱسم ما لم يُسَمّ فاعله ؛ وٱختار أبو عُبيد هذه القراءة لأنها فى مصحف عثمان وسائر مصاحف البلدان بنون واحدة . وقرأ ٱبن محيصن «فَنَجَا» فعل ماض ، و «مَنْ» فى موضع رفع لأنه الفاعل ، وعلى قراءة الباقين نصبا على المفعول . ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى الكافرين المشركين .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ ﴾ أى فى قصة يوسف وأبيه وإخوته ، أو فى قصص الأمم ﴿ عِبْرَةٌ ﴾ أى فكرة وتذكرة وعظة . ﴿ لِأُولِى ٱلْأَلْبَابِ ﴾ أى العقول . وقال محمد بن إسحق عن الزهرىّ عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التَّيْمىّ : إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعا وأربعين سنة ، وتُوفّى أخوه عِيصُو معه فى يوم واحد ، وقُبِرا فى قبر واحد ؛ فذلك قوله : «لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب» إلى آخر السورة . ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ أى ما كان القرآن حديثا يفترى ، أو ما كانت هذه القصة حديثا يفترى . ﴿ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى ما كان قبله من ٱلتوراة وٱلإنجيل وسائر كتب الله تعالى ؛ وهذا تأويل من زعم أنه القرآن . ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام ، والشرائع والأحكام ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنيــة فى قول الكلبى ومقاتل . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة، وهما قوله عز وجل : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » [إلى آخرهما](١)

قوله تعالى : الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١)

قوله تعالى : ﴿ المر تلك آياتُ الْكِتَابِ ﴾ تقدم القول فيها . ﴿ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعنى وهذا القرآن الذى أنزل إليك ﴿ مِنْ رَبِّكَ الْحَقّ ﴾ لا كما يقول المشركون : إنك تأتى به من تلقاء نفسك؛ فاعتصم به، واعمل بما فيه . قال مقاتل : نزلت حين قال المشركون : إن محمدا أتى بالقرآن من تلقاء نفسه . « والذى » فى موضــع رفع عطفا على « آيات » أو على الابتــداء ، و « الحق » خبره ؛ ويجــوز أن يكون موضــعه جرا على تقدير : وآيات الذى أُنزل إليك ، وارتفاع «الحق» على هذا على إضمار مبتدأ ، تقديره : ذلك الحقّ ؛ كقوله تعالى : « وَهُمْ يَعْلَمُونَ. الْحَقُّ » يعنى ذلك الحق . قال الفراء : وإن شئت جعلت « الذى » خفضا نعتا للكتاب ، وإن كانت فيه الواو كما يقال : أتانا هــذا الكتاب عن أبى حفص والفاروق ؛ ومنــه قول الشاعر :

إلى الملكِ القَــرْمِ وابنِ الهُمَامِ ۞ ولَيْثِ الكَتِيبَــةِ فى المُزْدَحَــمِ(٢)

يريد : إلى الملك القَرْم بن الهمام، ليث الكتيبة . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

---

(١) الزيادة من تفسير البحر . (٢) القرم (بفتح القاف) : السيد؛ والكتيبة : الجيش؛ والمزدحم : محل الازدحام .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الآية . لمّا بيّن تعالى أن القرآن حق، بيّن أن من أنزله قادر على الكمال؛ فانظروا فى مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته؛ وقد تقدم هذا المعنى . وفى قوله : « بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » قولان : أحدهما — أنها مرفوعة بغير عمد ترونها؛ قاله قتادة وإياس بن معاوية وغيرهما . الثانى — لها عمد، ولكنا لا نراه؛ قال ابن عباس : لها عمد على جبل قاف؛ ويمكن أن يقال على هذا القول : العمد قدرته التى يمسك بها السموات والأرض، وهى غير مرئية لنا؛ ذكره الزجاج . وقال ابن عباس أيضا : هى توحيد المؤمن . أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر؛ ذكره الغزنوى . والعَمَد جمع عمود؛ قال النابغة :

وخَيِّسِ الجنَّ إنّى قد أذِنتُ لهم * يَبْنُون تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ (١)

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ تقدم الكلام فيه (٢) . ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ أى ذلّلهما لمنافع خلقه ومصالح عباده؛ وكل مخلوق مُذلَّل للخالق . ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى إلى وقت معلوم؛ وهو فناء الدنيا، وقيام الساعة التى عندها تُكوَّر الشمس، ويُخسف القمر، وتنكدر النجوم، وتنتثر الكواكب . وقال ابن عباس : أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى ينتهيان إليها لا يجاوزانها . وقيل : معنى الأجل المسمّى أن القمر يقطع فلكه فى شهر، والشمس فى سنة . ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ أى يصرفه على ما يريد . ﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ أى يبيّنها؛ أى من قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة؛ ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ .

---

(١) ويروى : «وخبر الجن» . وخيس : ذلل؛ وتدمر : بلد بالشام بناها سيدنا سليمان عليه السلام . والصُّفَّاح حجارة عراض رقاق . وعمد : جمع عمود .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ لما بيّن آيات السموات بيّن آيات الأرض ؛ أى بسط الأرض طولا وعرضا . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ ﴾ أى جبالا ثوابت ؛ واحدها راسية ؛ لأن الأرض ترسو بها ، أى تثبت ؛ والإرساء الثبوت ؛ قال عنترة :

فصبرتُ عارفةً لذلك حُرَّةً * تَرْسُو إذا نفسُ الجبانِ تَطَلَّعُ[1]

وقال جميل :

أُحِبُّها والذى أَرْسَى قواعدَهُ * حُبًّا إذا ظَهَرتْ آياتُه بَطَنا

وقال ابن عباس وعطاء : أوّل جبل وضع على الأرض أبو قُبَيس[2] .

مسألة — فى هذه الآية ردّ على من زعم أن الأرض كالكرة ، وردّ على من زعم أن الأرض تهوِى أبوابها عليها ؛ وزعم ابن الرّاوندى أن تحت الأرض جسما صعّادا كالرّيح الصعّادة ؛ وهى منحدرة فاعتدل الهاوى والصعّادى فى الجِرْم والقوّة فتوافقا . وزعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين ، أحدهما منحدر ، والآخر مصعد ، فاعتدلا ، فلذلك وقفت . والذى عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدّها ، وأن حركتها إنما تكون فى العادة بزلزلة تصيبها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ أى مياها جارية فى الأرض ، فيها منافع الخلق . ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ بمعنى صنفين . قال أبو عبيدة : الزوج واحد ، ويكون اثنين . الفراء : يعنى بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى ؛ وهذا خلاف

---

(١) قبل البيت :

وعرفت أن منيّتى إن تأتنى * لا ينجّنى منها الفرار الأسرع

(٢) أبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكة .

النص . وقيل : معنى « زوجين » نوعان ، كالحلو والحامض ، والرطب واليابس ، والأبيض والأسود ، والصغير والكبير . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي دلالات وعلامات ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ في الكلام حذف ، المعنى : وفي الأرض قِطع متجاورات وغير متجاورات ، كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » والمعنى : وتقيكم البَرْد ، ثم حذف لعلم السامع . والمتجاورات المدن وما كان عامرا ، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر

الثانية ـ قوله تعالى : « متجاورات » أي قُرًى متدانيات ، ترابها واحد ، وماؤها واحد ، وفيها زروع وجنات ، ثم تتفاوت في الثمار والتمر ؛ فيكون البعض حُلْوا ، والبعض حامضا ؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصِّغر والكِبر واللون والمطعم ، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد ؛ وفي هذا أدلّ دليل على وحدانيته وعِظم صمديته ، والإرشاد لمن ضلّ عن معرفته ؛ فإنه نبَّه سبحانه بقوله : « تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ » على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ؛ وهذا أدلّ دليل على بطلان القول بالطبع ؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف. وقيل : وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البِقاع ؛ فمن تربة عذبة ، ومن تربة سَبِخة مع تجاورهما ؛ وهذا أيضا من دلالات كمال قدرته ؛ جل وعز تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرا .

الثالثة — ذهبت الكفرة — لعنهم الله — إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع، وآدعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقروا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض . وقالت فرقة: بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلا، والدليل على أن الحادث لابد له من محدث أنه يحدث في وقت، ويحدث ما هو من جنسه في وقت آخر، فلو كان حدوثه في وقته لاختصاصه به لوجب أن يحدث في وقته كل ماهو من جنسه، وإذا بطل آختصاصه بوقته صح أن آختصاصه به لأجل مخصص خصصه به ، لولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده، وآستيفاء هذا في علم الكلام.

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ قرأ الحسن « وَجَنَّاتٍ » بكسر التاء، على تقدير: وجعل فيها جنات، فهو محمول على قوله : «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ» . ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على « كل » التقدير : ومن كل الثمرات، ومن جنات . الباقون : «جَنَّاتٌ » بالرفع على تقدير : و بينهما جنات. ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ بالرفع. آبن كثير وأبو عمرو وحفص عطفا على الجنات، أي على تقدير : وفي الأرض زرع ونخيل. وخفضها الباقون نسقا على الأعناب ، فيكون الزرع والنخيل من الجنات، ويجوز أن يكون معطوفا على « كل » حسب ماتقدم في «وجنات» . وقرأ مجاهد والسلمي وغيرهما «صُنْوَانٌ» بضم الصاد ، الباقون بالكسر، وهما لغتان ، وهما جمع صِنْو، وهي النخلات والنخلتان ، يجمعهن أصل واحد، وتتشعب منه رءوس فتصير نخيلا ، نظيرها قِنْوان، واحدها قِنْو. وروى أبو إسحق عن البراء قال : الصنوان المجتمع ، وغير الصنوان المتفرق ؛ النحاس : وكذلك هو في اللغة ، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنوان . والصنو المثل ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أبيه " . ولا فرق فيها بين التثنية والجمع ، ولا بالإعراب، فتعرب نون الجمع ، وتكسر نون التثنية ، قال الشاعر :

العلمُ والحلمُ خَلَّتَا كَرَمٍ ... للمرء زَيْنٌ إذا هُمَا آجتمعَا
صنوان لا يُسْتَتَمُّ حُسْنُهُمَا ... إلا بجمع ذا وذاكَ معَا

الثامنة ـ قوله تعالى : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ كصالح بنى آدم وخبيثهم ، أبوهم واحد ؛ قاله النحاس والبخارى . وقرأ عاصم وابن عامر « يُسْقَى » بالياء ، أى يُسقَى ذلك كله . وقرأ الباقون بالتاء ، لقوله : « جنات » واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة ؛ قال أبو عمرو : والتأنيث أحسن ، لقوله : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ ولم يقل بعضه . وقرأ حمزة والكسائى وغيرهما « ويُفَضِّل » بالياء ردّا على قوله : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » و « يُفَصِّلُ » و « يُغْشِى » . الباقون بالنون على معنى : ونحن نفضل . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لعلىّ رضى الله عنه : " الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة " ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » حتى بلغ قوله : « يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ » و « الأكل » الثمر . قال ابن عباس : يعنى الحلو والحامض والفارسىّ والدَّقَل[1] . وروى مرفوعا من حديث أبى هُريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى قوله تعالى : « وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ » قال : " الفارسىّ والدَّقَل والحُلْو والحامض " ذكره الثعلبىّ . قال الحسن : المراد بهذه الآية المثل ؛ ضربه الله تعالى لبنى آدم ، أصلهم واحد ، وهم مختلفون فى الخير والشر والإيمان والكفر ، كاختلاف الثمار التى تسقى بماء واحد ؛ ومنه قول الشاعر :

النـاسُ كالنَّبت والنَّبتُ ألوان * منها شجر الصَّندلِ والكافورِ والبان

* ومنها شجر ينضح طولَ الدّهرِ قطران *

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

(١) الدقل : ردىء التمر .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث؛ والله تعالى لا يتعجب، ولا يجوز عليه التعجب؛ لأنه تغير النفس بما تخفى أسبابه؛ وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون. وقيل المعنى : أى إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأنى خالق السموات والأرض والثمار المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يعجب منه الخلق؛ لأن الإعادة فى معنى الابتداء. وقيل: الآية فى منكرى الصانع؛ أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بد له من مغير فهو محل التعجب؛ ونظم الآية يدل على الأول والثانى؛ لقوله : ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ أى أنبعث إذا كنا ترابا ؟ ! . ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقرئ «إنّا». و﴿الْأَغْلَالُ﴾ جمع غُلّ؛ وهو طوق تُشد به اليد إلى العُنق، أى يُغلّون يوم القيامة؛ بدليل قوله : «إِذِ الأغلال فِي أعناقِهِم» إلى قوله : «ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ». وقيل : الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم.

قوله تعالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أى لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب؛ قيل هو قولهم : «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ». قال قتادة : طلبوا العقوبة قبل العافية؛ وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة. وقيل : «قبل الحسنة» أى قبل الإيمان الذى يرجى به الأمان والحسنات. و﴿الْمَثُلَاتُ﴾ العقوبات؛ الواحدة مَثُلَة. ورُوى عن الأعمش أنه قرأ «الْمُثْلَات» بضم الميم وإسكان الثاء؛ وهذا جمع مُثْلَة، ويجوز

«المَثُلات» تبدل من الضمة فتحة لثقلها؛ وقيل: يُؤتى بالفتحة عوضاً من الهاء.
ورُوى عن الأعمش أنه قرأ «المَثْلات» بفتح الميم و إسكان الثاء؛ فهذا جمع مَثْلة، ثم حذف الضمة لثقلها؛ ذكره جميعه النحاس رحمه الله. وعلى قراءة الجماعة واحده مَثُلة، نحو صَدُقه؛ وتميم تضم الثاء والميم جميعا، واحدها على لغتهم مُثْلة، بضم الميم وجزم الثاء؛ مثل: غُرْفة وغُرُفات؛ والفعل منه مَثَلْتُ به أَمْثُلُ مَثْلا، بفتح الميم وسكون الثاء. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أى لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا، وعن المذنبين إذا تابوا. وقال ابن عباس: أرجى آية فى كتاب الله تعالى «وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم». ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا أصروا على الكفر. وروى حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت «وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنأ أحدا عيش ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتكل كل أحد".

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا﴾ أى هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾. لما اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أى معلم. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أى نبى يدعوهم إلى الله. وقيل: الهادى الله؛ أى عليك الإنذار، والله هادى كل قوم إن أراد هدايتهم.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى ــ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أى من ذكر وأنثى، صبيح وقبيح، صالح وطالح؛ وقد تقدم فى سورة «الأنعام» (١) أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده

(١) راجع جـ ٧ ص ١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

لا شريك له ؛ وذكرنا هناك حديث البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مفاتيح الغيب خمس " الحديث . وفيه " لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله " .

واختلف العلماء فى تأويل قوله : ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ فقال قتادة : المعنى ما تُسقط قبل التسعة الأشهر، وما تزداد فوق التسعة؛ وكذلك قال ابن عباس. وقال مجاهد : إذا حاضت المرأة فى حملها كان ذلك نقصانا فى ولدها ؛ فإن زادت على التسعة كان تماما لما نقص ؛ وعنه : الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم، والزيادة ما تزداد منه . وقيل : الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد، كنقصان إصبع أو غيرها، وزيادة إصبع أو غيرها . وقيل : الغيض انقطاع دم الحيض « وما تزداد » بدم النفاس بعد الوضع .

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض ؛ وهو مذهب مالك والشافعى فى أحد قوليه . وقال عطاء والشعبى وغيرهما : لا تحيض ؛ وبه قال أبو حنيفة ؛ ودليله الآية. قال ابن عباس فى تأويلها : إنه حيض الحبالى، وكذلك رُوى عن عكرمة ومجاهد ؛ وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتى النساء الحوامل إذا حضن أن يتركن الصلاة؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم ينكر منهم أحد عليها ، فصار كالإجماع ؛ قاله ابن عباس . قال ابن القصار : وذُكر أن رجلين تنازعا ولدا، فترافعا إلى عمر رضى الله عنه فعرضه على القافة، فألحقه القافة بهما، فعلاه عمر بالدِّرة، وسأل نسوة من قريش فقال : انظُرن ما شأن هذا الولد؟ فقُلن : إن الأول خلا بها وخلّاها ، فحاضت على الحمل، فظنت أن عدتها انقضت؛ فدخل بها الثانى، فانتعش الولد بماء الثانى؛ فقال عمر : الله أكبر! وألحقه بالأول، ولم يقل إن الحامل لا تحيض، ولا قال ذلك أحد من الصحابة؛ فدل أنه إجماع، والله أعلم . احتج المخالف بأن قال لو كان الحامل تحيض، وكان ما تراه المرأة من الدم حيضا لما صح استبراء الأمة بحيض ؛ وهو إجماع . وروى عن مالك فى كتاب محمد ما يقتضى أنه ليس بحيض .

الثالثــة — فى هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر، وأن عبدالملك بن مروان ولد لستة أشهر.

الرابعة — وهذه الستة الأشهر هي بالأهلة كسائر أشهر الشريعة؛ ولذلك قد روي في المذهب عن بعض أصحاب مالك، وأظنه في كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلة نقص الأشهر وزيادتها؛ حكاه ابن عطيه .

الخامسة — واختلف العلماء في أكثر الحمل؛ فروى ابن جُرَيج عن جَميلة بنت سعد عن عائشة قالت : لا يكون الحمل أكثر من ستين قدر ما يتحول ظلّ المِغْزَل ؛ ذكره الدارَقُطْني . وقالت جميلة بنت سعد — أخت عبيد بن سعد وعن الليث بن سعد — : إن أكثره ثلاث سنين . وعن الشافعي أربع سنين؛ وروى عن مالك في إحدى روايتيه، والمشهور عنه خمس سنين؛ وروى عنه لا حدّ له، ولو زاد على العشرة الأعوام؛ وهي الرواية الثالثة عنه . وعن الزهري ست وسبع . قال أبو عمر : ومن الصحابة من يجعله إلى سبع؛ والشافعي : مدّة الغاية منها أربع سنين . والكوفيون يقولون : سنتان لا غير . ومحمد بن عبد الحكم يقول : سنة لا أكثر . وداود يقول : تسعة أشهر، لا يكون عنده حمل أكثر منها . قال أبو عمر : وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد، والردّ إلى ما عُرِف من أمر النساء، وبالله التوفيق . روى الدارَقُطْني عن الوليد بن مسلم قال : قلت لمالك بن أنس إني حدّثت عن عائشة أنها قالت : لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قدر ظلّ المِغزل، فقال : سبحان الله ! من يقول هذا؟! هذه جارتنا امرأة محمد بن عَجْلان، تحمل وتضع في أربع سنين، امرأة صدق، وزوجها رجل صدق؛ حملت ثلاثة أبطن في اثنتي عشرة سنة، تحمل كل بطن أربع سنين . وذكره المبارك ابن مجاهد قال : مشهور عندنا كانت امرأة محمد بن عَجْلان تحمل وتضع في أربع سنين، وكانت تسمى حاملة الفيل . وروى أيضا قال : بينا مالك بن دينار يوما جالس إذ جاءه رجل فقال : يا أبا يحيى ! ادع لامرأة حبلى منذ أربع سنين قد أصبحت في كرب شديد ؛ فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال : ما يرى هؤلاء القوم إلا أنّا أنبياء ! ثم قرأ ، ثم دعا ، ثم قال : اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجه عنها الساعة ، وإن كان في بطنها جارية فأبدلها غلاما ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتُثبت ، وعندك

أم الكتاب ، ورفع مالك يده ، ورفع الناس أيديهم ، وجاء الرسول إلى الرجل فقال : أدرك امرأتك ، فذهب الرجل ، فما حطّ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جَعْد قَطَطٌ(١) ، ابن أربع سنين ، قد استوت أسنانه ، ما قُطِعت سِراره(٢) ، وروى أيضا أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ! إنى غبت عن امرأتى سنتين فجئت وهي حبلى ؛ فشاور عمر الناس فى رجمها ، فقال معاذ بن جبل : يا أمير المؤمنين ! إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما فى بطنها سبيل ؛ فاتركها حتى تضع ، فتركها ، فوضعت غلاما قد خرجت ثنيتاه ؛ فعرف الرجل الشبه فقال : ابنى ورب الكعبة ! ؛ فقال عمر : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ؛ لولا معاذ لهلك عمر . وقال الضحاك : وضعتنى أُمّى وقد حملت بى فى بطنها سنتين ، فولدتنى وقد خرجت سِنّى . ويذكر عن مالك أنه حمل به فى بطن أُمه سنتان ، وقيل : ثلاث سنين . ويقال إن محمد بن عجلان مكث فى بطن أُمه ثلاث سنين ، فماتت به وهو يضطرب اضطرابا شديدا ، فشُقّ بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه . وقال حمّاد ابن سلمة : إنما سمى هَرِم بن حِيان هَرِما لأنه بقى فى بطن أُمه أربع سنين . وذكر الغزنوى أن الضحّاك وُلِد لسنتين ، وقد طلعت سِنّه فسُمّى ضحّاكا . عباد بن العوام : ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاما شعره إلى منكبيه ، فمرّ به طير فقال : كش .

السادسة — قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهاد ، لأن علم ذلك استأثر الله به ، فلا يجوز أن يحكم فى شيء منه إلا بقدر ما أظهره لنا ، ووُجِد ظاهرا فى النساء نادرا أو معتادا ؛ ولما وجدنا امرأة قد حملت أربع سنين وخمس سنين حكمنا بذلك ، والنفاس والحيض لمّا لم نجد فيه أمرا مستقرا رجعنا فيه إلى ما يوجد فى النادر منهن .

السابعة — قال ابن العربى : نقل بعض المتساهلين عن المالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر ، وهذا ما لم ينطق به قطّ إلا هالكٌ ، وهم الطبائعيون الذين يزعمون أن مدبّر الحمل

---

(١) جعد قطط : شديد الجعودة . (٢) سرر الصبي : ما تقطعه القابلة .

فى الرحم الكواكب السبعة، تأخذه شهرا شهرا، ويكون الشهر الرابع منها للشمس ، ولذلك يتحرك ويضطرب ،وإذا تكامل التداول فى السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد فى الشهر الثامن إلى زُحَل، فيُبْقِله بِبَرْدِه، فياليتنى تمكنت من مناظرتهم أو مقاتلتهم ! ما بال المرجع بعد تمام الدور يكون إلى زُحَل دون غيره ؟ آلله أخبركم بهذا أم على الله تفترون ؟ ! وإذا جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لايجوز أن يعود التدبير إلى ثلاث أو أربع ،أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثا؟ ! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة !

الثامنــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ يعنى من النقصان والزيادة . ويقال: « بمقدار » قَدْر خروج الولد من بطن أمه، وقَدْر مكثه فى بطنها إلى خروجه . وقال قتادة: فى الرزق والأجل . والمقدار القَدْر، وعموم الآية يتناول كل ذلك،والله سبحانه أعلم .

قلت : هذه الآية تمدّح الله سبحانه وتعالى بها بأنه عالم الغيب والشهادة، أى هو عالم بما غاب عن الخلق، وبما شهدوه . فالغيب مصدر بمعنى الغائب . والشهادة مصدر بمعنى الشاهد؛ فنبّه سبحانه على انفراده بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذى يخفى على الخلق ، فلايجوز أن يشاركه فى ذلك أحد؛ فأما أهل الطبّ الذين يستدلّون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر، وإن قالوا إنها تجربة تُرِكوا وماهم عليه؛ ولم يَقدَح ذلك فى الممدوح؛ فإن العادة يجوز انكسارها، والعلم لا يجوز تبدّله . و ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ الذى كل شىء دونه . ﴿ الْمُتَعَالِ ﴾ عما يقول المشركون، المستعلى على كل شىء بقدرته وقهره؛ وقد ذكرناهما فى شرح الأسماء مستوفى، والحمد لله .

قوله تعالى : سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ إسرار القول : ما حدّث به المرءُ نفسه، والجهر ماحدّث به غيره ؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من

خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر . و « منكم » يحتمل أن يكون وصفا لـ«سواء» التقدير : سِرُّ من أَسَرَّ وجَهْرُ من جَهَر سواء منكم؛ و يجوز أن يتعلق « بسواء » على معنى : يستوى منكم، كقولك : مررت بزيد . و يجوز أن يكون على تقدير : سر من أَسَرّ منكم وجَهْر من جَهَر منكم . و يجوز أن يكون التقدير . ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، كما تقول عدل زيد وعمرو أى ذوا عدل . وقيل : «سواء» أى مستو، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مضاف . ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ أى يستوى فى علم الله السرّ والجهر، والظاهر فى الطرقات، والمستخفى فى الظلمات . وقال الأخفش وقُطْرُب المستخفى بالليل الظاهر؛ ومنه خَفَيتُ الشيء وأَخْفَيته أى أظهرتُه؛ وأخفيت الشيء أى آستخرجته؛ ومنه قيل للنَّبَّاش المختفى . وقال آمرؤ القيس :

خَفَاهُنَّ مِن أَنْفَاقِهِنَّ(١) كَأَنَّمَا * خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِن عَشِيٍّ مُجَلِّبِ

والسّارب المتوارى، أى الداخل سَرَبا؛ ومنه قولهم : آنْسَرَب الوحشىُّ إذا دخل فى كِنَاسه . وقال ابن عباس : « مستخف » مستتر، « وسارب » ظاهر . مجاهد : « مستخف » بالمعاصى ، « وسارب » ظاهر . وقيل : معنى « سارب » ذاهب ؛ الكسائى : سَرَبَ يَسْرُب سَرَبًا وسُرُوبًا إذا ذهب ؛ وقال الشاعر(٢) :

وكُلُّ أُناسٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ * ونَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فهو سَارِبُ

أى ذاهب . وقال أبو رجاء : السّارب الذاهب على وجهه فى الأرض؛ قال الشاعر(٣) :

* أَنَّى سَرَبْتِ وكُنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقال القُتَبىّ : « سارب بالنهار » أى منصرف فى حوائجه بسرعة؛ من قولهم : آنْسَرَب الماء . وقال الأصمعىّ : خَلِّ سِرْبَه أى طريقه .

---

(١) أنفاق (بجمع نفق) : وهو سرب فى الأرض إلى موضع آخر ، واستعاره امرؤ القيس لجحرة الفترة والودق : المطر . وغيث مجلب : مصوّت ، و يروى مخلب (بالخاء) . (٢) هو الأخنس بن شهاب التغلبى و يريد أن الناس أقاموا فى موضع واحد لا يجترئون على النقلة ، وحبسوا فحلهم عن أن يتقدم فتتبعه إبلهم خوفا أن يغار عليها ، ونحن أعزاء خلعنا قيد فحلنا ليذهب حيث شاء . (٣) هو قيس بن الخطيم ، وتمام البيت :

* وتقرب الأحلام غير قريب *

قوله تعالى : لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ أى لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار . وقال : « مُعَقِّبَاتٌ » والملائكة ذُكْران لأنه جمع مُعَقِّبة ؛ يقال : مَلَكٌ مُعَقِّب، وملائكة مُعَقِّبة، ثم مُعَقِّبات جمع الجمع . وقرأ بعضهم ــ « لَهُ مَعَاقِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ومِنْ خَلْفِهِ » . ومعاقيب جمع مُعَقِّب[1]؛ وقيل للملائكة معقبة على لفظ الملائكة . وقيل : أنّث لكثرة ذلك منهم؛ نحو نسّابة وعلّامة وراوية؛ قاله الجوهرى وغيره . والتعقيب العود بعد البدء ؛ قال الله تعالى : « وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » أى لم يرجع ؛ وفى الحديث[2] : "مُعَقِّباتٌ لا يَخيبُ قائلُهنّ ــ أو ــ فاعلُهنّ " فذكر التسبيح والتحميد والتكبير . قال أبو الهيثم : سُمّين « مُعَقِّبات » لأنهن عادت مرّة بعد مرّة ؛ فعل من عَمِل عملًا ثم عاد إليه فقد عَقَّب . والمعقّبات من الإبل اللواتى يقمن عند أعجاز الإبل المعتركات على الحوض ؛ فإذا انصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى . وقوله : ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أى المستخفى بالليل والسارب بالنهار . ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ اختلف فى الحفظ ؛ فقيل : يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوامّ والأشياء المضرّة ، لطفا منه به، فإذا جاء القَدَر خَلَّوا بينه وبينه؛ قاله ابن عباس وعليّ بن أبى طالب رضى الله عنهما . قال أبو مِجْلَز : جاء رجل من مُراد[3] إلى علىّ فقال : احترس فإن ناسا من مُراد يريدون قتلك؛ فقال : إن مع كل

(١) قال الزمخشرى : جمع معقب أو معقبة بتشديد القاف فيهما ؛ والياء عوض من حذف إحدى القافين فى التكسير . وقال ابن جنى : إنه تكسير معقب كمطعم ومطاعيم ، كأنه جمع على معاقبة ، ثم حذفت الهاء من الجمع وعوضت الياء عنها ؛ قال الألوسى : ولعله الأظهر . « روح المعانى » .

(٢) الحديث فى الدعاء وهو بتمامه فى « صحيح مسلم » : "معقبات لا يخيب قائلهن دبر كل صلاة مكتوبة ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة وأربع وثلاثون تكبيرة " . سميت معقبات لأنها عادت مرة بعد مرة ، أو لأنها تقال عقب كل صلاة .

(٣) مراد (بالضم وآخره دال مهملة) : قبيلة من قبائل العرب سميت باسم أبيها .

رجل مَلَكين يحفظانه مالم يُقدَّر، فإذا جاء القَدَر خَلّيا بينه وبين قَدَر الله، و إن الأجل حِصن حصينة؛ وعلى هـذا « يحفظونه من أمر الله » أى بأمر الله وبإذنه؛ فـ« مِن » بمعنى الباء؛ وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض . وقيل : « مِنْ » بمعنى « عن » ؛ أى يحفظونه عن أمر الله ، وهذا قريب من الأوّل؛ أى حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم ؛ وهذا قول الحسن ؛ تقول : كسوته عن عُرْى ومن عُرْى ؛ ومنـه قوله عز وجل : « أَطْعَمَهُمْ مِنْ جوعٍ » أى عن جوع . وقيل : يحفظونه من ملائكة العذاب،حتى لا تحلّ به عقوبة؛ لأن الله لا يغير ما بقوم من النّعمة والعافية حتى يُغيّروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر؛ فإذا أصرّوا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النّقمة ، وتزول عنهم الحَفَظة المعقّبات . وقيل : يحفظونه من الجنّ؛ قال كعب : لولا أن الله وَكّل بكم ملائكة يَذُبّون عنكم فى مَطْعَمكم ومَشْرَبكم وعوراتكم لتخطّفتكم الجنّ وملائكة العـذاب من أمر الله ؛ وخصّهم بأن قال : « من أمرِ الله » لأنهـم غير معايَنين ؛ كما قال : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » أى ليس ممـا تشاهدونه أنتم . وقال الفرّاء فى الكلام تقديم وتأخير، تقديره : له معقّبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفـه يحفظونه ؛ وهو مَروىّ عن مجاهـد وآبن جُرَيج والنَّخَعىّ ؛ وعلى أن ملائكة العذاب والجنّ من أمر الله لا تقديم فيه ولا تأخير. وقال آبن جُرَيج : إن المعنى يحفظون عليه عمله ،فحذف المضاف . وقال قَتادة : يكتبون أقواله وأفعاله . ويجوز إذا كانت المعقّبات الملائكة أن تكون الهاء فى « له » لله عزّ وجل ، كما ذكرنا ؛ ويجوز أن تكون للمستخفى، فهذا قول . وقيل : « له معقّبات من بين يديه ومن خلفه » يعنى به النبى صلى الله عليه وسلم،أى أن الملائكة تحفظه من أعدائه ؛ وقد جرى ذكر الرسول فى قوله : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْه آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَـا أَنْتَ مُنْذِرٌ » أى سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به فى أنه لا يضرّ النبي صلى الله عليه وسلم ، بل له معقّبات يحفظونه عليه السلام؛ويجوز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل؛ لأنه قد قال : « ولكل قوم هاد » أى يحفظون الهـادى من بين يديه ومن خلفه .

وقول رابع — أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم

يحفظونهم ؛ فإذا جاء أمر الله لم يُغنوا عنهم من الله شيئا ؛ قاله ابن عباس وعِكْرِمة ؛ وكذلك قال الضّحاك ؛ هو السّلطان المتحرّس من أمر الله المشرك . وقد قيل : إن فى الكلام على هذا التأويل نفيا محذوفا، تقديره : لا يحفظونه من أمر الله تعالى؛ ذكره المـاوردىّ . قال المهدوىّ : ومن جعل المعقّبات الحرس فالمعنى : يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه . وقيل : سواء من أسرّ القول ومن جهر به فله حرّاس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصى، ويحفظونه من أن ينجع فيه وعظ ؛ قال القُشَيرىّ : وهذا لايمنع الربّ من الإمهال الى أن يحقّ العذاب؛ وهو إذا غيّر هـذا العاصى مابنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سببا للعقوبة؛ فكأنه الذى يحلّ العقوبة بنفسه؛ فقوله : «يحفظونه من أمر الله» أى من امتثال أمر الله . وقال عبد الرحمن بن زيد: المعقّبات مايتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه فى عباده؛ قال المـاوردىّ : ومن قال بهذا القول ففى تأويل قوله « يحفظونه من أمر الله » وجهان : أحدهما ـ يحفظونه من الموت مالم يأت أجل؛ قاله الضحاك . الثانى ـ يحفظونه من الجنّ والهوامّ المؤذية، مالم يأت قَدَر؛ ـ قاله أبو أُمامة وكعب الأحبار ـ فإذا جاء المقدور خلّوا عنه؛ والصحيح أن المعقّبات الملائكة، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن جُرَيج ؛ وروى عن ابن عباس، واختاره النحاس، واحتجّ بقول النبى صلى الله عليه وسلم : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار " الحديث، رواه الأئمة . وروى الأئمة عن عَمرو عن ابن عباس قرأ ـ «معقّبات من بين يديه ورقباء من خلفه [من أمر الله](1) يحفظونه» فهذا قد بيّن المعنى . وقال كِنانة العَدَوىّ : دخل عثمان رضى الله تعالى عنه على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ! أخبرنى عن العبد كم معه من مَلَك ؟ قال : " مَلَك عن يمينك يكتب الحسنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذى على اليمين أمير على الذى على الشمال فإذا عَمِلت حسنة كُتبت عشرا و إذا عَمِلت سيئة قال الذى على الشمال للذى على اليمين أأكتب قال لا لعله يستغفر الله تعالى ويتوب فإذا قال ثلاثا قال نعم آكتب أراحنا الله تعالى منه

(١) الزيادة من تفسير الطبرى .

فبئس القـرين هو ما أقلّ مراقبتـه لله عز وجل وأقل آسـتحياءه منا يقـول الله تعـالى « ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وملَكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى « لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » [وملَك قابض على ناصيتك فإذا تواضعتَ لله رفعـك و إذا تجبّرتَ على الله قصَمكَ][1] وملَكان على شفتيك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد وآ له وملَك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية فى فيك وملَكان على عينيك فهـؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى يتـداولون ملائكة الليل على ملائكة النهـار لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمى و إبليس مع ابن آدم بالنهار وولده بالليل " . ذكره الثعلبي . قال الحسن : المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند صـلاة الفجر . وآختار الطّـبرى أن المعقّبات المواكب بين أيدى الأمراء وخلْفهم ؛ والهاء فى « له » لمن ؛ على ما تقدّم . وقال العلماء رضوان الله عليهم : إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين : أحدهما — قضى حلوله ووقوعه بصاحبه ؛ فذلك لا يدفعـه أحد ولا يغيره . والآخر — قضى مجيئـه ولم يقض حلوله ووقوعه ، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفـــظ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ أخبر الله تعالى فى هذه الآية أنه لا يغيّر ما بقوم حتى يقع منهم تغيير ، إما منهـم أو من الناظر لهم ، أو ممن هو منهم بسبب ؛ كما غيّر الله بالمنهزمين يوم أُحُد بسبب تغيير الرّماة بأنفسهم ، إلى غير هـذا من أمثلة الشّريعة ؛ فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير ؛ كما قال صلى الله عليه وسـلم — وقد سُئل أنَهلك وفينا الصّالحون ؟ قال — : " نعم إذا كثُر الخبث[2] " . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا ﴾ أى هلاكا وعذابا ﴿ فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ . وقيل : إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مردّ لبلائه . وقيل : إذا أراد الله بقوم سوءا أعمى

(١) الزيادة عن تفسير الثعلبي [illegible] . (٢) [illegible] .

أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه ؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفه ، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه . ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ أى ملجأ ؛ وهو معنى قول السُّدّىّ . وقيل : من ناصر يمنعهم من عذابه ؛ وقال الشاعر :

* ما فى السماء سوى الرحمن من وال *

ووالٍ وولِىّ كقادر وقدير .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ أى بالمطر . «والسَّحاب» جمع ، والواحدة سَحابة ، وسُحُب وسَحائب فى الجمع أيضا . ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ قد مضى فى « البقرة »[1] القول فى الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة ؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته ، وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز ؛ أى يريكم البرق فى السماء خوفا للمسافر ، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والهول والصواعق ؛ قال الله تعالى : « أَذًى مِنْ مَطَرٍ » وطمعا للحاضر أن يكون عقبه مطر وخصب ؛ قال معناه قَتادة ومجاهد وغيرهما . وقال الحسن : خوفا من صواعق البرق ، وطمعا فى غيثه المزيل للقحط . ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ قال مجاهد : أى بالماء . « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » من قال إن الرّعد صوت السّحاب فيجوز أن يُسبّح الرعد بدليل خلق الحياة فيه ؛ ودليل صحة هذا القول قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » فلو كان الرّعد مَلَكا لدخل فى جملة الملائكة . ومن قال إنه ملك قال : معنى « من خيفته » من خيفة الله ؛ قاله الطَّبَرىّ وغيره . قال ابن عباس : إن الملائكة

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

خائفون من الله ليس كخوف ابن آدم؛ لا يعرف واحدهم من على يمينه ومن على يساره، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب؛ وعنه قال: الرعد ملك يسوق السحاب، و إن بخار الماء لفي نقرة إبهامه، وأنه موكل بالسحاب يصرفه حيث يؤمر، وأنه يسبح الله؛ فإذا سبح الرعد لم يبق ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح، فعندها ينزل القطر، وعنه أيضا كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان الذي سبحت له. وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول: إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد. وقيل: إنه ملك جالس على كرسي بين السماء والأرض، وعن يمينه سبعون ألف ملك، وعن يساره مثل ذلك؛ فإذا أقبل على يمينه وسبح سبح الجميع من خوف الله، وإذا أقبل على يساره وسبح سبح الجميع من خوف الله.

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ذكر الماوردي عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب ومجاهد: نزلت في يهودي قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أخبرني! من أي شيء ربك، أمن لؤلؤ أم من ياقوت؟ فجاءت صاعقة فأحرقته. وقيل: نزلت في بعض كفار العرب؛ قال الحسن: كان رجل من طواغيت العرب بعث النبي صلى الله عليه وسلم نفرا يدعونه إلى الله و رسوله والإسلام فقال لهم: أخبروني عن رب محمد ما هو، ومم هو، أمن فضة أم من حديد أم نحاس؟ فاستعظم القوم مقالته؛ فقال: أجيب محمدا إلى رب لا يعرفه! فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليه مرارا وهو يقول مثل هذا؛ فبينا النفر ينازعونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رءوسهم، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوس؛ فرجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: احترق صاحبكم، فقالوا: من أين علمتم؟ قالوا: أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ» ذكره الثعلبي عن الحسن، والقشيري بمعناه عن أنس، وسيأتي. وقيل: نزلت الآية في أربد بن ربيعة أخي لبيد بن ربيعة، وفي عامر بن الطفيل؛ قال ابن عباس: أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة

العامريان يريدان النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه ، فدخلا المسجد ، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور ، وكان من أجمل الناس ؛ فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا يارسول الله عامر بن الطُّفَيل قد أقبل نحوك ؛ فقال : "دَعْه فإن يُرِد الله به خيرا يَهْدِه" فأقبل حتى قام عليه فقال : يا محمد مالى إن أسلمت؟ فقال : " لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين " . قال : أتجعل لى الأمر من بعدك ؟ قال : " ليس ذاك إلىّ إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء " . قال : أفتجعلنى على الوَبَر وأنت على المَدَر ؟ قال : " لا " . قال : فما تجعل لى ؟ قال : " أجعل لك أَعِنَّة الخيل تغزو عليها في سبيل الله " . قال : أو ليس لى أعنّة الخيل اليوم ؟ قم معى أكلمك ؛ فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عامر أومأ إلى أَرْبَد : إذا رأيتنى أكلمه فدُرْ من خلفه واضربه بالسيف ؛ فجعل يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم ويراجعه ؛ فاخترط أَرْبَد من سيفه شبرا ثم حبسه الله ، فلم يقدر على سَلّه ، وَيبست يده على سيفه ، وأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائف صاحٍ فأحرقته ، وولّى عامر هاربا وقال : يا محمد ! دعوت ربك على أربد حتى قتله ؛ والله لأملأنها عليك خيلا جُرْدا ، وفتيانا مُرْدا ؛ فقال عليه السلام : " يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلة" يعنى الأوس والخزرج ؛ فنزل عامر بيت امرأة سَلُولية ؛ وأصبح وهو يقول : والله لئن أَصْحَر[1] لى محمدٌ وصاحبه ـــ يريد مَلَك الموت ـــ لأنفذنهما برمحى ؛ فأرسل الله مَلَكا فلطمه بجناحه فأذراه[2] في التراب ؛ وخرجت على ركبته غُدّة عظيمة في الوقت ؛ فعاد إلى بيت السّلولية وهو يقول : غُدّة كغدة البعير ، وموت في بيت سَلُولية ؛ ثم ركب على فرسه فمات على ظهره . ورَثَى لَبِيد بن ربيعة أخاه أَرْبَد فقال :

يا عينُ هلّا بكيتِ أَرْبَدَ إذْ قُمْـ * ـنَا وقامَ الخُصُوم في كَبَد[3]

أَخْشَى على أَرْبَدَ الحُتُوفَ ولَا * أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاكِ وَالأَسَد

فَجَّعَنِي الرَّعْدُ والصَّوَاعِقُ بالفا * رِسِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ النَّجِد[4]

(١) أصحر الرجل : إذا خرج إلى الصحراء .
(٢) أذراه : قلبه ورمى به .
(٣) كبد : شدة وعناء .
(٤) النجد : السريع الإجابة .

وفيـــه قال :

إنّ الرّزيّةَ لا رزيّةَ مثلُها * فقدانُ كلِّ أخٍ كضوءِ الكوكبِ

يا أربدَ الخيرِ الكريمَ جدودُه * أفردتَني أمشي بقرنٍ أعضبِ (١)

وأسلم لبيد بعد ذلك رضى الله عنه .

مسئلة — روى أبان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تأخذ الصاعقة ذاكرًا لله عزّ وجلّ" . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرّعد يقول : "سبحان من يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شىء قدير فإن أصابته صاعقة فعلىّ ديتــه" . وذكر الخطيب من حديث سليمان بن علىّ عن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال : كنا مع عمر فى سفر فأصابنا رعد وبَرَد، فقال لنا كعب : من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عوفى مما يكون فى ذلك الرعد؛ ففعلنا فعوفينا؛ ثم لقيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فإذا بَرَدة (٢) قد أصابت أنفه فأثّرت به، فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال : بَرَدة أصابت أنفى فأثّرت، فقلت : إن كعبا حين سمع الرعد قال لنا : من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عُوفى مما يكون فى ذلك الرعد؛ فقلنا فعوفينا؛ فقال عمر : أفلا قلتم لنا حتى نقولها ؟ وقد تقدّم هذا المعنى فى «البقرة» (٣) .

قوله تعالى : ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ يعنى جدال اليهودىّ حين سأل عن الله تعالى : من أىّ شىء هو ؟ قاله مجاهد . وقال ابن جُرَيج : جدال أَرْبَد فيما همّ به من قتل النبى صلى الله عليه وسلم . ويجوز أن يكون «وهم يجادلون فى الله» حالا ، ويجوز أن يكون منقطعا . وروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى عظيم من المشركين يدعوه إلى الله عزّ وجلّ، فقال لرسول الله : أخبرنى عن إلهك هــذا ! أهو من فضة أم من ذهب أم من نحاس ؟

---

(١) قرن أعضب : مكسور . (٢) البرد (بالتحريك) : حب الغمام.

(٣) راجع جـ ١ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

فاستعظم ذلك، فرجع إليه فأعلمه، فقال: "ارجع إليه فادعه" فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نزل: «وهم يجادلون فى الله» . ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ قال ابن الأعرابى : «المحال» المكر، والمكر من الله عز وجل التدبير بالحق. النحاس : المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وروى ابن اليزيدى عن أبى زيد «وهو شديد المحال» أى النقمة . وقال الأزهرى : «المحال» أى القوة والشدة . والمَحْل : الشدة ، الميم أصلية، وماحلتُ فلانا مِحالًا أى قاويته حتى يتبين أينا أشد . وقال أبو عبيد : «المحال» العقوبة والمكروه . وقال ابن عرفة : «المحال» الجدال، يقال : ماحل عن أمره أى جادل . وقال القُتَبِى : أى شديد الكيد، وأصله من الحيلة، جعل ميمه كميم المكان، وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. وقال الأزهرى : غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة، بل هى أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فِعال أوله ميم مكسورة فهى أصلية، مثل: مِهاد ومِلاك ومِراس، وغير ذلك من الحروف . ومِفْعَل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يجىء بإظهار الواو مثل : مِزْوَد ومِحْوَل ومِحْوَر، وغيرها من الحروف، وقال[(1)] : وقرأ الأعرج ــ «وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ» بفتح الميم، وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول، ذكر هذا كله أبو عبيد الهروى، إلا ما ذكرناه أولا عن ابن الأعرابى، وأقاويل الصحابة والتابعين بمعناها، وهى ثمانية : أولها ــ شديد العداوة، قاله ابن عباس. وثانيها ــ شديد الحَوْل، قاله ابن عباس أيضا . وثالثها ــ شديد الأخذ، قاله على بن أبى طالب . ورابعها ــ شديد الحقد، قاله ابن عباس. وخامسها ــ شديد القوة، قاله مجاهد. وسادسها ــ شديد الغضب، قاله وهب بن مُنَبِّه . وسابعها ــ شديد الهلاك بالمحل، وهو القحط، قاله الحسن أيضا . وثامنها ــ شديد الحيلة، قاله قتادة. وقال أبو عبيدة مَعْمَر: المحال والمماحلة المماكرة والمغالبة، وأنشد للأعشى :

فرع نَبْعٍ يهتزُّ فى غُصُنِ المجـ ... ـدِ كثير الندى شديد المحال

---

(1) أى الأزهرى كما فى اللسان مادة «محل».

وقال آخر[1] :

ولَبْسٍ بينَ أقوامٍ فكُلٌّ * أعدَّ له الشَّغازِبَ والمِحَالا

وقال عبد المطلب :

لاهُمَّ إنَّ المرءَ يمـ * ـنَعُ رَحْلَهُ فامْنَعْ حِلالَكْ[2]

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهم ومِحَا * لُهُمْ عَدْوًا مِحَالَكْ

قوله تعالى : لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أى لله دعوة الصدق . قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : لا إله إلا الله . وقال الحسن : إن الله هو الحق، فدعاؤه دعوة الحق . وقيل : إن الإخلاص فى الدعاء هو دعوة الحق؛ قاله بعض المتأخرين. وقيل : دعوة الحق دعاؤه عند الخوف؛ فإنه لا يدعى فيه إلا إياه، كما قال : « ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ »؛ قال الماوردى : وهو أشبه بسياق الآية؛ لأنه قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعنى الأصنام والأوثان. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أى لا يستجيبون لهم دعاء، ولا يسمعون لهم نداء . ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلا ليأسهم من الإجابة لدعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض الماء باليد؛ قال :

فأصبحتُ فيما كان بينى وبينها * من الودّ مثلَ القابضِ الماءَ باليدِ

---

(١) هو ذو الرمة، والبيت من قصيدة يمدح بها بلال بن أبى بردة بن أبى موسى . واللبس : الاختلاط . والشغازب قال الأصمعى : الشغزبية ضرب من الحيلة فى الصراع، وهو أن يُدخل الرجل بين رجلى صاحبه ليصرعه ؛ والمعنى : فكل رجل من القوم أعد له جنة وكيدا . (٢) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون؛ يريد بهم سكان الحرم .

وفى معنى هذا المثل ثلاثة أوجه : أحدها ـ أن الذى يدعو إلهـا من دون الله كالظمآن الذى يدعو المـاء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا ، لأن المـاء لا يستجيب ، وما المـاء ببالغ إليه ؛ قاله مجاهد . الثانى ـ أنه كالظمآن الذى يرى خياله فى المـاء وقد بسط كفه فيـه ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، لكذب ظنه ، وفساد توهمه ؛ قاله ابن عباس . الثالث ـ أنه كباسط كفيه إلى المـاء ليقبض عليه فلا يجد فى كفه شىء منه . وزعم الفراء أن المراد بالمـاء هاهنا البئر ؛ لأنها معدن للمـاء ، وأن المثـل كمن مدّ يده إلى البئر بغير رشاء ؛ وشاهده قول الشاعر :

فإن المـاءَ ماءُ أبِى وجَـدّى * وبِئْرِى ذُو حَفَرْتُ وذُو طَوَيْتُ

قال على رضى الله عنه : هو كالعطشان على شفة البئر ، فلا يبلغ قعر البئر ، ولا المـاء يرتفع إليه ؛ ومعنى « إلا كباسط » إلا كاستجابة باسط كفيه « إلى المـاء » فالمصدر مضاف إلى الباسط ، ثم حذف المضاف ؛ وفاعل المصدر المضاف مراد فى المعنى وهو المـاء ؛ والمعنى : إلا كإجابة باسط كفيه إلى المـاء ؛ واللام فى قوله : «ليبلغ فاه» متعلقة بالبسط ؛ وقوله : « وما هو ببالغه » كناية عن المـاء ؛ أى وما المـاء ببالغ فاه . ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم ؛ أى ما الفم ببالغ المـاء . ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أى ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا فى ضلال ، لأنها شرك . وقيل : إلا فى ضلال أى يضلّ عنهم ذلك الدعاء ، فلا يجدون منـه سبيلا ؛ كما قال : « أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا » . وقال ابن عباس : أى أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم .

قوله تعـالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ قال الحسن وقتادة وغيرهما : المؤمن يسجد طوعا ، والكافر يسجد كرها بالسيف . وعن قتادة أيضا يسجد الكافر كارها حين لا ينفعه الإيمان . وقال الزجاج : سجود الكافر كرها ما فيه من الخضوع وأثر الصنعة .

وقال ابن زيد : «طوعا» من دخل فى الإسلام رغبة، و «كَرْها» من دخل فيه رهبة بالسيف. وقيل : « طوعا » من طالت مدة إسلامه فألف السجود، و « كَرْها » من يكره نفسه لله تعالى؛ فالآية فى المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى « والأرض » وبعض من فى الأرض . قال القُشَيْرِىّ : وفى الآية مسلكان : أحدهما — أنها عامة والمراد بها التخصيص؛ فالمؤمن يسجد طوعا، وبعض الكفار يسجدون إكراها وخوفا كالمنافقين ؛ فالآية محمولة على هؤلاء؛ ذكره الفرّاء . وقيل على هذا القول : الآية فى المؤمنين؛ منهم من يسجد طوعا لا يثقل عليه السجود، ومنهم من يثقل عليه؛ لأن التزام التكليف مشقّة، ولكنهم يتحملون المشقّة إخلاصا وإيمانا، إلى أن يألفوا الحق ويَمْرُنوا عليه . والمسلك الثانى — وهو الصحيح — إجراء الآية على التعميم؛ وعلى هذا طريقان : أحدهما — أن المؤمن يسجد طوعا، وأما الكافر فمأمور بالسجود مؤاخذ به . والثانى — وهو الحق — أن المؤمن يسجد ببدنه طوعا، وكل مخلوق من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع؛ وهذا كقوله : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة . ﴿ وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أى ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدو والآصال؛ لأنها تبين فى هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية؛ وذلك تصريف الله إياها على ما يشاء؛ وهو كقوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ » قاله ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : ظِلّ المؤمن يسجد طوعا وهو طائع ، وظِلّ الكافر يسجد كَرْها وهو كاره . وقال ابن الأنبارىّ : يجعل للظلال عقول تسجد بها وتخشع بها، كما جعل للجبال أفهام حتى خاطبت وخوطبت . قال القُشَيْرى : فى هذا نظر؛ لأن الجبل عين، فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة ، وأما الظلال فآثار وأعراض ، ولا يتصور تقدير الحياة لها، والسجود بمعنى الميل؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب؛ يقال : سجدت النخلة أى مالت . و«الآصال» جمع أُصُل، والأُصُل جمع أَصِيل؛ وهو ما بين العصر إلى الغروب، ثم أصائل جمع الجمع؛ قال أبو ذؤيب الهذلىّ :

لَعَمْرِى لَأَنْتَ البيتُ أُكْرِمُ أهلَهُ ۞ وأَقعُدُ فى أفيائه بالأصائلِ

و « ظِلَالُهُمْ » يجوز أن يكون معطوفا على « مَنْ » ويجوز أن يكون ٱرتفع بالابتداء والخبر محذوف؛ التقدير: وظلالهم سُجَّدٌ بالغدو والآصال . « والغدو » يجوز أن يكون مصدرا، ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوى كونه جمعا مقابلة الجمع الذى هو الآصال به .

قوله تعالى : قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للشركين : « قل من رب السموات والأرض » ثم أمره أن يقول : هو الله إلزاما للحجة إن لم يقولوا ذلك ، وجهلوا مَن هو . ﴿ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ هذا يدل على آعترافهم بأن الله هو الخالق [و إلا] لم يكن للاحتجاج بقوله : «قل أفتخذتم من دونه أولياء» معنى؛ دليله قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » أى فإذا آعترفتم فلم تعبدون غيره؟ ! وذلك الغير لا ينفع ولا يضرّ؛ وهو إلزام صحيح . ثم ضرب لهم مثلا فقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ فكذلك لا يستوى المؤمن الذى يبصر الحق، والمشرك الذى لا يبصر الحق . وقيل : الأعمى مَثَلٌ لما عبدوه من دون الله، والبصير مَثَلُ الله تعالى : ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ أى الشرك والإيمان . وقرأ ٱبن محيصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائى «يستوى» بالياء لتقدم الفعل؛ ولأن تأنيث «الظلمات» ليس بحقيق . الباقون بالتاء؛ واختاره أبو عبيد، قال : لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل . و « الظلمات والنور » مثل الإيمان والكفر؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك . ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا من تمام الاحتجاج، أى خَلَق غير الله مثل

خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم . ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾
أى قل لهم يا محمد : الله خالق كل شيء ، فلزم لذلك أن يعبده كل شيء . والآية ردّ على
المشركين والقَدَرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله . ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ ﴾ قبل كل شيء .
﴿ الْقَهَّارُ ﴾ الغالب لكل شيء ، الذى يغلب فى مراده كل مريد . قال القُشَيرى أبو نصر :
ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع ؛ أى سَلْهم عن خالق السموات
والأرض، فإنه يسهل تقرير الحجة فيه عليهم ، ويقرب الأمر من الضرورة ؛ فإن عَجْز الجماد
وعَجْز كل مخلوق عن السموات والأرض معلوم؛ وإذا تقرر هذا وبَانَ أن الصانع هو الله فكيف
يجوز اعتداد الشريك له ؟ ! وبيّن فى أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لا شتبه الخلق،
ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك ، فبم يعلم أن الفعل من اثنين ؟ ! .

قوله تعالى : أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾
لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾
أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾
ضرب مثلا للحق والباطل ؛ فشبّه الكفر بالزبد الذى يعلو الماء ، فإنه يضمحلّ ويعلق
بجنبات الأودية ، وتدفعه الرياح ؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحلّ ، على ما نبيّنه . قال مجاهد :

فسالت أودية بقدرها » قال : بقدر ملئها . وقال ابن جريج : بقدر صغرها وكبرها . وقرأ الأشهب العقيلي والحسن « بقدْرِها » بسكون الدال، والمعنى واحد . وقيل : معناها بما قدر لها . والأودية جمع الوادى ؛ وسمى واديا لخروجه وسيلانه ؛ فالوادى على هذا اسم للماء السائل . وقال أبو على : « أودية » توسع ؛ أى سال ماؤها فحذف، قال : ومعنى « بقدرها » بقدر مياهها؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها . « فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا » أى طالعا عاليا مرتفعا فوق الماء، وتم الكلام؛ قاله مجاهد . ثم قال : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ﴾ وهو المثل الثانى . ﴿ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ﴾ أى حلية الذهب والفضة . ﴿ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ قال مجاهد : الحديد والنحاس والرصاص . وقوله : « زبدٌ مثله » أى يعلو هذه الأشياء زبد كما يعلو السيل؛ وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبدا، كذلك ما يوقد عليه فى النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما ينبث فى الأرض من المعادن فقد خالطه التراب؛ فإنما يوقد عليه ليذوب فيزايله تراب الأرض . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ قال مجاهد : جمودا . وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو ابن العلاء : أَجْفَأَتِ القِدْرُ إذا غلت حتى ينصب زَبَدها، وإذا جمد فى أسفلها . والجُفَاء ما أجفأه الوادى أى رمى به . وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُؤْبة يقرأ «جُفَالًا» قال أبو عبيدة: يقال أَجْفَلَتِ القِدْرُ إذا قذفت بزبدها، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته . ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : هو الماء الخالص الصافى . وقيل : الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص ؛ وهو أن المثلين ضربهما الله للحق فى ثباته، والباطل فى اضمحلاله ؛ فالباطل وإن علا فى بعض الأحوال فإنه يضمحل كاضمحلال الزبد والخبث . وقيل : المراد مَثَلٌ ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب ؛ فَشبَّه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه ، وشبَّه القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل فى الأودية بحسب سعتها وضيقها . قال ابن عباس : « أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً » قال قرآنا ؛ « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا » قال : الأودية قلوب العباد . قال صاحب

«سوق العروس» : إن صح هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مثل القرآن بالماء، ومثل القلوب بالأودية، ومثل المحكم بالصافى، ومثل المتشابه بالزبد . وقيل : الزبد مخايل النفس وغوائل الشك ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تلعها، كما أن ماء السيل يجرى صافيا فيرفع ما يجد فى الوادى باقيا؛ وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السنية، والأخلاق الزكية، التى بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء، وبهما قيمة الأشياء. وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائى وحفص «يوقدون» بالياء؛ واختاره أبو عبيد لقوله : « ينفع الناس » فأخبر، ولا مخاطبة هاهنا . الباقون بالتاء لقوله فى أول الكلام : «أفاتخذتم من دونه أولياء» الآية . وقوله : « فى النار » متعلق بمحذوف، وهو فى موضع الحال، وذو الحال الهاء التى فى « عليه » التقدير : ومما توقدون عليه ثابتا فى النار أو كائنا . وفى قوله : «فى النار» ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التى هى اسم ذى الحال. ولا يستقيم أن يتعلق « فى النار » بـ«يوقدون» من حيث لا يستقيم أوقدت عليه فى النار؛ لأن الموقد عليه يكون فى النار، فيصير قوله « فى النار » غير مفيد . وقوله : « ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ » مفعول له . « زَبَدٌ مِثْلُهُ » ابتداء وخبر؛ أى زبد مثل زبد السيل. وقيل: إن خبر «زبد» قوله : « فى النار » . الكسائى : « زبد » ابتداء، و« مثله » نعت له، والخبر فى الجملة التى قبله، وهو «مما يوقدون» . ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ أى كما بين لكم هذه الأمثال فكذلك يضربها بينات . تم الكلام ، ثم قال : ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ﴾ أى أجابوا . (٢) استجاب بمعنى أجاب؛ قال :

فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقد تقدم؛ أى أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوات . ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ لأنها فى نهاية الحسن . وقيل : من الحسنى النصر فى الدنيا، والنعيم المقيم غدا . ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾

---

(١) هو : أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبرى، نزيل مكة المكرمة، المتوفى بها سنة ٤٧٨؛ وكتابه «سوق العروس» فى علم القراءات . (كشف الظنون) .

(٢) هو كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار؛ وصدر البيت : وداع دعا يا من يجيب إلى الندى

أى لم يجيبوا إلى الإيمان به. ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أى من الأموال. ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ ملكا لهم ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ من عذاب يوم القيامة؛ نظيره فى « آل عمران » « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِنَ اللهِ شَيْئًا »، « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ » حسب ما تقدم بيانه هناك (١). ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ أى لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. وقال فَرْقَد السَّبَخِى (٢): قال إبراهيم النَّخعىُّ: يا فَرْقَد! أتدرى ما سوء الحساب؟ قلت: لا! قال: أن يحاسَب الرجل بذنبه كلّه لا يفقد منه شىء. ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ أى مسكنهم ومقامهم. ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أى الفراش الذى مهدوا لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، ورُوى أنها نزلت فى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه، وأبى جهل لعنه الله. والمراد بالعَمى عَمى القلب، والجاهل بالدين عَمِىّ القلب. ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾.

قوله تعالى: ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾

فيه مسئلتان:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ ﴾ هذا من صفة ذوى الألباب؛ أى إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله. والعهد اسم للجنس؛ أى بجميع عهود الله، وهى أوامره ونواهيه التى وصّى بها عبيده؛ ويدخل فى هذه الألفاظ التزام جميع الفروض، وتجنب جميع المعاصى. وقوله: ﴿ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ يحتمل أن يريد به جنس المواثيق، أى إذا عقدوا فى طاعة الله عهدا لم ينقضوه. قال قَتَادة: تقدم الله إلى عباده فى نقض الميثاق ونهى عنه فى بضع وعشرين آية؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه، وهو الذى أخذه

(١) راجع جـ ٤ ص ٢١ وما بعدها، ص ١٣١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) السبخى (بفتحتين) إلى السبخة موضع بالبصرة.

الله على عباده حين أخرجهم من صلب أبيهم آدم . وقال القفال : هو ما ركب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات .

الثانيـــة ـــ روى أبو داود وغيره عن عوف بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال: " ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم " وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا : قد بايعناك [حتى قالها ثلاثا ؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه ، فقال قائل : يا رسول الله! إنا قد بايعناك][1] فعلى ماذا نبايعك ؟ قال : " أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا ـــ وأسر كلمة خفية ـــ قال لا تسألوا الناس شيئا " قال : ولقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فما يسأل أحدا أن يناوله إياه . قال ابن العربي : من أعظم المواثيق في الذكر ألا يسأل سواه ؛ فقد كان أبو حمزة الخراساني من كبار العباد سمع أن أناسا بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يسألوا أحدا شيئا ، الحديث ؛ فقال أبو حمزة : رب ! إن هؤلاء عاهدوا نبيك إذ رأوه ، وأنا أعاهدك ألا أسأل أحدا شيئا ؛ قال : فخرج حاجا من الشام يريد مكة فبينما هو يمشي في الطريق من الليل إذ بقي عن أصحابه لعذر ثم أتبعهم ، فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق ؛ فلما حل في قعره قال : أستغيث لعل أحدا يسمعني . ثم قال : إن الذي عاهدته يراني ويسمعني ، والله ! لا تكلمت بحرف للبشر ، ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مر بذلك البئر نفر ؛ فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا : إنه لينبغي سد هذا البئر ؛ ثم قطعوا خشبا ونصبوها على فم البئر وغطوها بالتراب ؛ فلما رأى ذلك أبو حمزة قال : هذه مهلكة ؛ ثم أراد أن يستغيث بهم ، ثم قال : والله ! لا أخرج منها أبدا ؛ ثم رجع إلى نفسه فقال : أليس قد عاهدت من يراك ؟ فسكت وتوكل ، ثم استند في قعر البئر مفكرا في أمره فإذا بالتراب يقع عليه ، والخشب يرفع عنه ، وسمع في أثناء ذلك من يقول : هات يدك ! قال : فأعطيته يدي فأقلني في مرة واحدة إلى فم البئر ، فخرجت فلم أر أحدا ؛ فسمعت هاتفا يقول : كيف رأيت ثمرة التوكل ؛ وأنشد :

(1) الزيادة من كتب الحديث .

نهانى حيائى منك أن أكشف الهوى • فأغنيتنى بالعلم منك عن الكشف
تلطفت فى أمرى فأبديت شاهدى • إلى غائبى واللطف يدرك باللطف
تراءيت لى بالعلم حتى كأنما • تخبرنى بالغيب أنك فى كف
أرانى وبى من هيبتى لك وحشة • فتؤنسنى باللطف منك و بالعطف
وتحيى محبا أنت فى الحب حتفه • وذا عجب كيف الحياة مع الحتف

قال ابن العربى : هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال ، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا . قال أبو الفرج الجوزى : سكوت هذا الرجل فى هذا المقام على التوكل بزعمه إعانة على نفسه، وذلك لا يحل ؛ ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافى استغاثته فى تلك الحالة ؛ كما لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوكل بإخفائه الخروج من مكة ، واستئجاره دليلا، واستكتامه ذلك الأمر، واستتاره فى الغار، وقوله لسراقة : "أخف عنا". فالتوكل الممدوح لا ينال بفعل محظور، وسكوت هذا الواقع فى البئر محظور عليه؛ وبيان ذلك أن الله تعالى قد خلق للآدمى آلة يدفع عنه بها الضرر ، وآلة يجتلب بها النفع ، فإذا عطلها مدعيا للتوكل كان ذلك جهلا بالتوكل، وردا لحكمة التواضع؛ لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله تعالى، وليس من ضرورته قطع الأسباب ؛ ولو أن إنسانا جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار ؛ قاله سفيان الثورى وغيره ، لأنه قد دل على طريق السلامة ، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه . وقال أبو الفرج : ولا التفات إلى قول أبى حمزة : «فجاء أسد فأخرجنى» فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله اتفاقا ، وقد يكون لطفا من الله تعالى بالعبد الجاهل؛ ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به، إنما ينكر فعله الذى هو كسبه، وهو إعانته على نفسه التى هى وديعة لله تعالى عنده، وقد أمره بحفظها .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ

بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ظاهر فى صلة الأرحام؛ وهو قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: فى قطع الرحم . وقيل : فى جميع المعاصى . ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ « سوء الحساب » الاستقصاء فيه والمناقشة؛ ومن نُوقش الحساب عُذّب . وقال ابن عباس وسعيد بن جُبير: معنى « يصلون ما أمر الله به » الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم . الحسن : هو صلة محمد صلى الله عليه وسلم. ويحتمل رابعا: أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح، «ويخشون ربهم» فيما أمرهم بوصله ، «ويخافون سوء الحساب» فى تركه؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا، وبالله توفيقنا .

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: «الذين» مستأنف؛ لأن «صبروا» ماض فلا ينعطف على «يوفون» . وقيل : هو من وصف من تقدّم، ويجوز الوصف تارة بلفظ الماضى، وتارة بلفظ المستقبل؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا؛ ولما كان «الذين» يتضمن الشرط [و] الماضى فى الشرط كالمستقبل جاز ذلك؛ ولهذا قال : «الذين يوفون» ثم قال : «والذين صبروا» ثم عطف عليه فقال : «ويدرءون بالحسنة السيئة». قال ابن زيد: صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصية الله . وقال عطاء : صبروا على الرزايا والمصائب، والحوادث والنوائب. وقال أبو عمران الجَوْنى : صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله . ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أدّوها بفروضها وخشوعها فى مواقيتها . ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعنى الزكاة المفروضة؛ عن ابن عباس، وقد مضى القول فى هذا فى «البقرة»[1] وغيرها. ﴿وَيَدْرَءُونَ

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أى يدفعون بالعمل الصالح السىء من الأعمال؛ قاله ابن عباس. ابن زيد: يدفعون الشر بالخير. سعيد بن جُبير: يدفعون المنكر بالمعروف. الضحاك: يدفعون الفحش بالسلام. جُوَيبر: يدفعون الظلم بالعفو. ابن شجرة: يدفعون الذنب بالتوبة. القُتَبِىّ: يدفعون سفه الجاهل بالحلم؛ فالسفه السيئة، والحلم الحسنة. وقيل: إذا هموا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فهذه تسعة أقوال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم؛ ونظيره: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» ومنه قوله عليه السلام لمعاذ: "وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها وخَالِقِ الناسَ بخُلُق حَسَن".

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أى عاقبة الآخرة، وهى الجنة بدل النار، والدار غدا داران: الجنة للطيع، والنار للعاصى؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لا محالة. وقيل: عنى بالدار دار الدنيا؛ أى لهم جزاء ما عملوا من الطاعات فى دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أى لهم جنات عدن؛ فـ«جنات عدن» بدل من «عقبى». ويجوز أن تكون تفسيرا لـ«عقبى الدار» أى لهم دخول جنات عدن؛ لأن «عقبى الدار» حَدَث، و«جنات عدن» عين، والحدث إنما يفسر بحدث مثله؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول. ويجوز أن يكون «جنات عدن» خبر ابتداء محذوف. و«جنات عدن» وسط الجنة وقَصَبتها، وسقفها عرش الرحمن؛ قاله القُشَيرىّ أبو نصر عبد الرحيم. وفى صحيح البخارى: "إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجّر أنهار الجنة". فيحتمل أن يكون «جنات» كذلك، إن صح فكذلك خبر. وقال عبد الله بن عمرو: إن فى الجنة قصرا يقال له عَدْن، حوله البُرُوج والمُرُوج، فيه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حِبَرة[1] لا يدخله إلا نبىّ أو صدّيق أو شهيد. و«عدن» مأخوذ من عَدَن بالمكان إذا أقام فيه؛ على ما يأتى بيانه فى سورة «الكهف»[2] إن شاء الله. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ يجوز أن

(١) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها): ضرب من البرود اليمنية منمّر. (٢) آية ٣١.

يكون معطوفا على « أولئك » المعنى : أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبى الدار . ويجوز أن يكون معطوفا على الضمير المرفوع فى « يدخلونها » وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما . ويجوز أن يكون المعنى : يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم ، أى من كان صالحا؛ لا يدخلونها بالأنساب . ويجوز أن يكون موضع « مَنْ » نصبا على تقدير : يدخلونها مع من صلح من آبائهم، و إن لم يعمل مثل أعمالهم يُلحقه الله بهم كرامة لهم . وقال ابن عباس : هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول؛ ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعيّة . قال القُشَيرى : وفى هذا نظر؛ لأنه لا بد من الإيمان؛ فالقول فى اشتراط العمل الصالح كالقول فى اشتراط الإيمان؛ فالأظهر أن هذا الصلاح فى جملة الأعمال ، والمعنى : أن النعمة غدًا تتمّ عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع قراباتهم فى الجنة، و إن دخلها كل إنسان بعمل نفسه ، بل برحمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ أى بالتحف والهدايا من عند الله تكرمةً لهم . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى يقولون : سلام عليكم؛ فأضمر القول؛ أى قد سلمتم من الآفات والمحن . وقيل : هو دعاء لهم بدوام السلامة، و إن كانوا سالمين ؛ أى سلمكم الله؛ فهو خبر معناه الدّعاء ؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية . ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ أى بصبركم ؛ فـ« ما » مع الفعل بمعنى المصدر، والباء فى « بما » متعلقة بمعنى « سلام عليكم » . ويجوز أن تتعلق بمحذوف؛ أى هذه الكرامة بصبركم ، أى على أمر الله تعالى ونهيه؛ قاله سعيد بن جُبَير . وقيل : على الفقر فى الدنيا؛ قاله أبو عِمْران الجَوْنِى . وقيل : على الجهاد فى سبيل الله؛ كما روى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله" قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : "المجاهدون الذين تُسدّ بهم الثغور وتُتّقى بهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته فى نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" . وقال محمد بن إبراهيم : كان النبى صلى الله عليه وسلم يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : "السلام عليكم بما صبرتم فنعم

عقبى الدار" وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان؛ وذكره البيهقىّ عن أبى هُرَيرة قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يأتى الشهداء ، فإذا أتى فُرْضَة الشِّعْب[1] يقول : " السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" . ثم كان أبو بكر بعد النبى صلى الله عليه وسلم يفعله ، وكان عمر بعد أبى بكر يفعله ، وكان عثمان بعد عمر يفعله ؛ وقال الحسن البصرى رحمه الله : « بما صبرتم » عن فضول الدنيا . وقيل : « بما صبرتم » على ملازمة الطاعة ، ومفارقة المعصية ؛ قال معناه الفُضَيْل بن عِيَاض . ابن زيد : « بما صبرتم » عما تحبونه إذا فقدتموه . ويحتمل سابعا ــ « بما صبرتم » عن اتباع الشهوات . وعن عبد الله بن سَلَام وعلىّ بن الحسين رضى الله عنهم [أنهما قالا][2] : إذا كان يوم القيامة ينادى مناد ليقم أهل الصبر ؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : آنطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ؛ قالوا : قبل الحساب ؟ قالوا نعم ! فيقولون : من أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الصبر ، قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن معاصى الله ، وصبرناها على البلاء والمحن فى الدنيا . قال علىّ بن الحسين : فتقول لهم الملائكة : آدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . وقال آبن سَلَام : فتقول لهم الملائكة : «سلام عليكم بما صبرتم» . ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أى نعم عاقبة الدار التى كنتم فيها ؛ عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذى أنتم فيه ؛ فالعقبى على هذا آسم ، و «الدار» هى الدنيا . وقال أبو عِمْران الجَوْنىّ : «فنعم عقبى الدار» الجنة عن النار ، وعنه : « فنعم عقبى الدار » الجنة عن الدنيا .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾

(١) فرضة الشعب : فوهته . والشعب : ما انفرج بين جبلين . والشهداء كانوا بجبل أحد .

(٢) فى الأصل : « أنه قال » .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ لما ذكر الموفين بعهده والمواصلين لأمره ، وذكر مالهم ذكر عكسهم . نقض الميثاق : ترك أمره . وقيل : إهمال عقولهم ، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى . ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ أى من الأرحام، والإيمان بجميع الأنبياء . ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى بالكفر وارتكاب المعاصى . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ أى الطرد والإبعاد من الرحمة . ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ أى سوء المنقلب، وهو جهنم . وقال سعد بن أبى وقاص: والله الذى لا إله إلا هو ! إنهم الحرورية .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ لما ذكر عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بين أنه تعالى الذى يبسط الرزق ويقدر فى الدنيا، لأنها دار امتحان؛ فبسط الرزق على الكافر لا يدل على كرامته ، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم . « ويقدر » أى يضيق؛ ومنه « وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » أى ضيق . وقيل : « يقدر » يعطى بقدر الكفاية . ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعنى مشركى مكة؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها ، وجهلوا ما عند الله ؛ وهو معطوف على « ويفسدون فى الأرض » . وفى الآية تقديم وتأخير؛ التقدير: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا . ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ أى فى جنبها ﴿ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ أى متاع من الأمتعة؛ كالقصعة والسكرجة (1) . وقال مجاهد : شىء قليل ذاهب ؛ من متع النهار إذا ارتفع، فلا بد له من زوال . ابن عباس : زاد كزاد الراعى . وقيل : متاع الحياة الدنيا ما يستمتع بها منها . وقيل : ما يتزود منها إلى الآخرة ، من التقوى والعمل الصالح ؛ « ولهم سوء الدار » ثم ابتدأ « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » أى يوسع ويضيق .

قوله تعالى : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(1) السكرجة : إناء صغير يؤكل فيه الشىء القليل من الأدم ، وهى فارسية .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ بين في مواضع أن اقتراح الآيات على الرسل جهل ، بعد أن رأوا آية واحدة تدل على الصدق ؛ والقائل عبد الله بن أبي أمية وأصحابه حين طالبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالآيات . ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ ﴾ عز وجل ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ أي كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات وحرمكم الاستدلال بها يضلكم عند نزول غيرها . ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي من رجع . والهاء في « إليه » للحق، أو للإسلام، أو لله عز وجل ؛ على تقدير : ويهدى إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه . وقيل : هي للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ « الذين » في موضع نصب، لأنه مفعول؛ أي يهدى الله الذين آمنوا . وقيل بدل من قوله : « من أناب » فهو في محل نصب أيضا . ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن؛ قال : أي وهم تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بألسنتهم؛ قاله قتادة . وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : بالقرآن. وقال سفيان ابن عيينة: بأمره . مقاتل : بوعده . ابن عباس : بالحلف باسمه ، أو تطمئن بذكر فضله وإنعامه ؛ كما توجل بذكر عدله وانتقامه وقضائه . وقيل : « بذكر الله » أي يذكرون الله ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة . ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أي قلوب المؤمنين . قال ابن عباس : هذا في الحلف ؛ فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه . وقيل : « بذكر الله » أي بطاعة الله . وقيل : بثواب الله . وقيل : بوعد الله . وقال مجاهد : هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ ﴾ ابتداء وخبر . وقيل : معناه لهم طُوبَى؛ فـ « طُوبَى » رفع بالابتداء ، ويجوز أن يكون موضعه نصبا على تقدير : جعل

لهم طوبى، ويعطف عليه «وحسن مآب» على الوجهين المذكورين، فترفع أو تنصب.
وذكر عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر عن يحيى بن أبي كثير عن عَمْرو بن أبي يزيد البِكَالِيّ عن عُتْبة ابن عَبْد السُّلَمِيّ قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الجنة وذكر الحوض فقال: فيها فاكهة؟ قال: "نعم شجرة تدعى طوبى". قال: يارسول الله! أيّ شجر أرضنا تشبه؟ قال: "لا تشبه شيئا من شجر أرضك أأتيت الشام هناك شجرة تدعى الجوزة تنبت على ساق ويفترش أعلاها". قال: يارسول الله! فما عِظَم أصلها! قال: "لو ارتحلتَ جَذَعة من إبل أهلك ما أحطْتَ بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوتها هَرَما". وذكر الحديث، وقد كتبناه بكماله في أبواب الجنة من كتاب «التذكرة»، والحمد لله. وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا مَعْمَر عن الأشعث عن عبد الله عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هُرَيرة قال: في الجنة شجرة يقال لها طوبى؛ يقول الله تعالى لها: تفتّقي لعبدي عما شاء؛ فتفتّق له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء، وتفتّق عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما شاء، وعن النّجائب والثّياب.
وذكر ابن وهب من حديث شَهْر بن حَوْشَب عن أبي أُمامة الباهليّ قال: «طُوبَى» شجرة في الجنة ليس منها دار إلا فيها غصن منها، ولا طير حسن إلا هو فيها، ولا ثمرة إلا هي منها؛ وقد قيل: إن أصلها في قصر النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة، ثم تنقسم فروعها على منازل أهل الجنة، كما انتشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا. وقال ابن عباس: «طوبى لهم» فرح لهم وقرّة عين؛ وعنه أيضا أن «طوبى» اسم الجنة بالحبشية؛ وقاله سعيد بن جُبَير. الربيع بن أنس: هو البستان بلغة الهند؛ قال القُشَيْرِيّ: إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين. وقال قَتَادة: «طوبى لهم» حسنى لهم. عِكْرِمة: نعمى لهم. إبراهيم النَّخَعِيّ: خير لهم؛ وعنه أيضا كرامة من الله لهم. الضحاك: غبطة لهم. النحاس: وهذه الأقوال متقاربة؛ لأن طُوبَى فُعْلَى من الطِّيب؛ أي العيش الطّيب لهم؛ وهذه الأشياء ترجع إلى الشيء الطّيب. وقال الزّجاج: طُوبَى فُعْلى من الطِّيب، وهي الحالة المستطابة لهم؛ والأصل طُيْبَى، فصارت الياء واوا لسكونها وضم ما قبلها، كما قالوا: موسر وموقن.

قلت : والصحيح أنها شجرة ؛ للحديث المرفوع الذى ذكرناه، وهو صحيح على ما ذكره السهيلي؛ ذكره أبو عمر فى التمهيد، ومنه نقلناه؛ وذكره أيضا الثعلبى فى تفسيره؛ وذكر أيضا المهدوى والقشيرى عن معاوية بن قُرَّة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " طوبى شجرة فى الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تُنبت الحلى والحُلل وإن أغصانها لَتُرى من وراء سور الجنة ". ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع الثعلبى . وقال ابن عباس : « طوبى » شجرة فى الجنة أصلها فى دار على، وفى دار كل مؤمن منها غُصْن . وقال أبو جعفر محمد بن على : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : «طوبى لهم وحسن مآب» قال : " شجرة أصلها فى دارى وفروعها فى الجنة " ثم سئل عنها مرة أخرى فقال : " شجرة أصلها فى دار على وفروعها فى الجنة " فقيل له : يارسول الله ! سُئلتَ عنها فقلت : " أصلها فى دارى وفروعها فى الجنة " ثم سُئلتَ عنها فقلت : " أصلها فى دار على وفروعها فى الجنة " فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن دارى ودار على غدا فى الجنة واحدة فى مكان واحد" . وعنه صلى الله عليه وسلم : " هى شجرة أصلها فى دارى وما من دار من دوركم إلا مُدَلًّى فيها غُصن منها ". ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ آب إذا رجع . وقيل تقدير الكلام : الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله وعملوا الصالحات طوبى لهم .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ أى أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك ؛ قاله الحسن . وقيل : شَبَّه الإنعام على من أرسل إليه محمد عليه السلام بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله . ﴿ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ﴾ قال مقاتل وابن جُريج : نزلت فى صُلح الحُدَيْبِيَة حين أرادوا

أن يكتبوا كتاب الصلح ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ : "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم" فقال سُهيل بن عمرو والمشركون : ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة ، يعنون مُسَيلمة الكذاب ؛ اكتب باسمك اللهم ، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ : "اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله" فقال مشركو قريش : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك ، ولكن اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ؛ فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : دعنا نقاتلهم ؛ فقال : "لا ولكن اكتب ما يريدون" فنزلت . وقال ابن عباس : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : "اسجدوا للرحمن" قالوا : وما الرحمن ؟ فنزلت ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : الذي أنكرتم ﴿ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ولا معبود سواه ، هو واحد بذاته ، وإن اختلفت أسماء صفاته . ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ واعتمدت ووثقت . ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أي مرجعي غدا ، واليوم أيضا عليه توكلت ووثقت ، رضًا بقضائه ، وتسليما لأمره . وقيل : سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الحِجْر ويقول : "يا الله يا رحمن" فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين ؛ فنزلت هذه الآية ، ونزل « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ » .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ هذا متصل بقوله : « لولا أنزل عليه آية من ربه » وذلك أن نفرا من مشركي مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية

المخزوميان جلسوا خلف الكعبة ، ثم أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم ؛ فقال له عبد الله : إن سرّك أن نتبعك فسيِّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبها عنّا حتى تنفسح ؛ فإنها أرض ضيّقة، واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا، حتى نغرس ونزرع ؛ فلستَ كما زعمتَ بأهون على ربك من داود حين سخّر له الجبال تسير معه . وسخِّر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضى عليها مِيرتنا وحوائجنا ، ثم نرجع من يومنا ؛ فقد كان سليمان سخّرت له الريح كما زعمتَ ؛ فلستَ بأهون على ربك من سليمان بن داود . وأَحْيِ لنا قَصَبّاً[1] جدّك ، أو من شئتَ أنت من موتانا نسأله ، أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيى الموتى ، ولست بأهون على الله منه ؛ فأنزل الله تعالى : « ولو أن قرآنا سُيِّرت بِهِ الجبال » الآية؛ قال معناه الزّبير بن العوّام ومجاهد وقتادة والضّحاك ؛ والجواب محذوف تقديره : لكان هذا القرآن، لكن حذف إيجازا، لما فى ظاهر الكلام من الدلالة عليه؛ كما قال امرؤ القيس :

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً * ولكِنَّها نفسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا

يعنى لهان علىّ ؛ هذا معنى قول قتادة؛ قال : لو فَعَل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم . وقيل : الجواب متقدم، وفى الكلام تقديم وتأخير؛ أى وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا . الفرّاء : يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن . الزّجاج : « ولو أن قرآنا » إلى قوله : « الموتى » لما آمنوا ؛ والجواب المضمر هنا ما أظهر فى قوله : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ » إلى قوله : « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . ﴿ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أى هو المالك لجميع الأمور، الفاعل لما يشاء منها، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن، إنما يكون بأمر الله .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال الفرّاء قال الكلبىّ : « ييئس » بمعنى يعلم، لغة النَّخَع؛ وحكاه القُشَيرى عن ابن عباس؛ أى أفلم يعلموا؛ وقاله الجوهرى فى الصحاح .

---

(1) القصب : كل عظم مستدير أجوف .

وقيل : هو لغة هَوازن ؛ أى أفلم يعلم ؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن . وقال أبو عبيدة : أفلم يعلموا و يتبيّنوا ، وأنشد فى ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النّصْرِىّ :[1]

أَقُولُ لَهُمْ بالشِّعْبِ إذْ يَيْسِرُونَنِى ٭ أَلَمْ تَيْئَسُوا أَنِّى ٱبْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

يَيْسرونَنى من المَيْسر، وقد تقدم فى « البقرة »[2] و يروى يأسرونني من الأَسْر . وقال رَباح ابن عدىّ :

أَلَمْ يَيْئَسِ الأقوامُ أَنّى [أَنَا][3] ٱبنُـهُ ٭ وإنْ كنتُ عن أرضِ العَشيرةِ نائيًا

فى كتاب الردّ «أنى أنا ٱبنه » وكذا ذكره الغزنوىّ : ألم يعلم؛ والمعنى على هذا : أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات . وقيل : هو من اليأس المعروف ؛ أى أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار ، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم؛ لأن المؤمنين تمنّوا نزول الآيات طمعا فى إيمان الكفار . وقرأ علىّ وٱبن عباس : « أَفَلَمْ يَتَبَيَّنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا » من البيان . قال القُشَيرىّ : وقيل لابن عباس المكتوب « أفلم ييئس » قال : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس ؛ أى زاد بعض الحروف حتى صار «ييئس» . قال أبو بكر الأنبارىّ : روى عكرمة عن ٱبن أبى نَجيح أنه قرأ « أفلم يتبين الذين آمنوا » و بها ٱحتجّ من زعم أنه الصواب فى التلاوة؛ وهو باطل عن ٱبن عباس؛ لأن مجاهدا وسعيد ٱبن جُبَير حكيا الحرف عن ابن عباس؛ على ما هو فى المصحف بقراءة أبى عمرو و روايته عن مجاهد وسعيد بن جُبَير عن ابن عباس؛ ثم إن معناه : أفلم يتبين ؛ فإن كان مراد الله تحت اللفظة التى خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها ، وتأتى بتأويلها ؛ و إن أراد الله المعنى الآخر الذى اليأس فيه ليس من طريق العلم فقد سقط مما أوردوا؛

(١) ذكر فى « لسان العرب » أن قائل البيت هو سحيم بن وثيل اليربوعى ؛ قال : وذكر بعض العلماء أنه لولده جابر بن سحيم بدليل قوله فيه : « أنى ابن فارس زهدم » وزهدم : فرس سحيم . وقوله : ييسروننى من الإيسار الجزور ؛ أى يجتزروننى و يقتسموننى ، وذكر ذلك لأنه كان قد وقع عليه سباء فضربوا عليه بالميسر يتحاسبون على قيمة فدائه . (٢) راجع جـ ٣ ص ٥٣ طبعة أولى أو ثانية . (٣) لم ترد فى الأصول لفظة « أنا » والواجب إثباتها كما فى كتاب « الرد » إذ أن البيت من الطويل ، وبدونها لا يستقيم .

وأمّا سقوطه يبطل القرآن ، ولزوم أصحابه البهتان . ﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ ﴾ « أنْ » مخففة من الثقيلة، أى أنه لو يشاء الله ﴿ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وهو يردّ على القَدَرية وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ أى داهية تفجؤهم بكفرهم وعتوهم ؛ ويقال : قرعه أمر إذا أصابه ، والجمع قوارع ؛ والأصل فى القرع الضرب؛ قال[1] :

أَفْنَى تِلَادِى وَمَا جَمَّعْتُ مِن نَشَبٍ * قَــرْعُ القَوَاقِيزِ أفواه الاباريقِ

أى لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أَرْبد أو من قتل أو أسر أو جدب، أو غير ذلك من العذاب والبلاء؛ كما نزل بالمستهزئين، وهم رؤساء المشركين. وقال عِكرِمة عن ابن عباس : القارعة النكبة . وقال ابن عباس أيضا وعكرمة : القارعة الطلائع والسرايا التى كان يُنفِذها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم . ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ أى القارعة ﴿ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ﴾ قاله قَتادة والحسن . وقال ابن عباس : أو تحل أنت قريبا من دارهم . وقيل: نزلت الآية بالمدينة؛ أى لا تزال تصيبهم القوارع فتنزل بساحتهم أو بالقرب منهم كقرى المدينة ومكة . ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ فى فتح مكة؛ قاله مجاهد وقَتادة . وقيل: نزلت بمكة؛ أى تصيبهم القوارع، وتخرج عنهم إلى المدينة يا محمد، فتحلّ قريبا من دارهم، أو تحلّ بهم محاصرا لهم؛ وهذه المحاصرة لأهل الطائف، ولقلاع خَيْبر، ويأتى وعد الله بالإذن لك فى قتالهم وقهرهم . وقال الحسن : وعد الله يوم القيامة .

قوله تعالى : وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا

(١) هو الأقيشر الأسدى ، واسمه المغيرة بن عبد الله . والتلاد : المال القديم الموروث . والنشب : الضياع والبساتين وما يجده بعمله . والقواقيز (جمع قاقوزة) : وهى أوان يشرب بها الخمر .

عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ تقدّم معنى الاستهزاء في «البقرة»(١) ومعنى الإملاء في «آل عمران»(٢) أي سُخِرَ بهم، وأُزرِي عليهم؛ فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم؛ فلما حقّ القضاء أخذتهم بالعقوبة .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي فكيف رأيت ما صنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركي قومك .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ليس هذا القيام القيام الذي هو ضدّ القعود، بل هو بمعنى التولّي لأمور الخلق؛ كما يقال : قام فلان بشغل كذا؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أي يقدرها على الكسب، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها؛ فالمعنى : أنه حافظ لا يغفل، والجواب محذوف؛ والمعنى : أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل . وقيل : أفمن هو قائم أي عالم؛ قاله الأعمش . قال الشاعر :

فلولا رِجالٌ من قريشٍ أَعِزّةٌ * سَرَقتمْ ثيابَ البيتِ واللهُ قائمُ

أي عالم؛ فالله عالم بكسب كل نفس . وقيل : المراد بذلك الملائكة الموكلون ببني آدم؛ عن الضحاك . ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ حال؛ أي قد جعلوا، أو عطف على «اسْتُهْزِئَ» أي استهزءوا وجعلوا؛ أي سمّوا ﴿ لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ يعني أصناما جعلوها آلهة . ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي قل لهم يا محمد : «سمّوهم» أي بيّنوا أسماءهم، على جهة التهديد؛ أي إنما يسمّون : اللاتَ والعُزّى ومَناة وهُبَل . ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ «أم» استفهام توبيخ، أي أتنبئونه؛ وهو على التحقيق عطف على استفهام متقدّم في المعنى؛ لأن قوله : «سمّوهم» معناه : أَلَهُمْ أسماء الخالقين «أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض»؟ . وقيل : المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه، أم بظاهر من القول يعلمه؟ فإن قالوا : بباطن لا يعلمه أحالوا، وإن قالوا :

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٨٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بظاهر يعلمه فقل لهم : سموهم ، فإذا سموهم اللات والعزى فقل لهم : إن الله لا يعلم لنفسه شريكا . وقيـل : « أم تنبئونه » عطف على قوله : « أفمن هو قائم » أى أفمن هو قائم ، أم تنبئون الله بمـا لا يعلم ، أى أنتم تدعون لله شريكا ، والله لا يعلم لنفسه شريكا ، أفتنبئونه بشريك له فى الأرض وهو لا يعلمه ! وإنمـا خص الأرض بنفى الشريك عنها وإن لم يكن له شريك فى غير الأرض لأنهم آدعوا له شركاء فى الأرض . ومعنى ﴿ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ : الذى أنزل الله على أنبيائه ، وقال قتادة : معناه بباطل من القول ، ومنه قول الشاعر :

أَعَيَّرْتَنَـا أَلْبَانَهـا ولُحُـومَهَا ۞ وذلك عارٌ يا بن رَيْطَةَ ظاهرُ

أى باطل . وقال الضحاك : بكذب من القول . ويحتمل خامسا ـــ أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم ، ويكون معنى الكلام : أتخبرونه بذلك مشاهدين ، أم تقولون محتجين . ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ أى دع هذا ! بل زين للذين كفروا مكرهم ، قيل : آستدراك على هـذا الوجه ، أى ليس لله شريك ، لكن زين للذين كفروا مكرهم . وقرأ آبن عباس ومجاهد ـــ « بَلْ زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ » مسمى الفاعل ، وعلى قراءة الجماعة فالذى زَيَّن للكافرين مكرهم الله تعـالى ، وقيل : الشيطان . ويجـوز أن يسمى الكفر مكرا ، لأن مكرهم بالرسول كان كفرا . ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى صدهم الله ، وهى قراءة حمزة والكسائى . الباقون بالفتح ، أى صدوا غيرهم ، واختاره أبو حاتم ، اعتبارا بقوله : « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » وقوله : « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . وقراءة الضم أيضا حسنة فى « زين » و « صدوا » لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك فى مذهب أهل السنة ، ففيه إثبات القـدر ، وهو آختيار أبى عبيد . وقرأ يحيى بن وثاب وعلقمة ـــ « وصِدُّوا » بكسر الصاد ، وكذلك « هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رِدَّتْ إِلَيْنَا » بكسر الراء أيضا على مالم يسم فاعله ، وأصلها صُـدِدوا ورُدِدَت ، فلمـا أدغمت الدال الأولى فى الثانيـة نقلت حركتهـا على ما قبلهـا فانكسر . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ ﴾ بخذلانه ﴿ فَمَـا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى موفق ، وفى هذا إثبات قراءة الكوفيين ومن تابعهم ، لقـوله : « ومن يضلل الله » ، فكذلك قوله : « وَصُدُّوا » . ومعظم القراء

يقفون على الدال من غير الياء ، وكذلك والٍ وواقٍ؛ لأنك تقول في الرجل : هذا قاضٍ ووالٍ وهادٍ، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين . وقرئ « فماله من هادى »، و « والى » و « واقى » بالياء؛ وهو على لغة من يقول؛ هذا داعى ووالى وواقى بالياء؛ لأن حذف الياء في حالة الوصل لالتقائها مع التنوين، وقراءتنا هذا في الوقف؛ فردّت الياء فصار هادى ووالى وواقى . وقال الخليل في نداء قاضٍ : يا قاضى بإثبات الياء؛ إذ لا تنوين مع النداء ، كما لا تنوين في نحو الداعى والمتعالى .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى للمشركين الصادّين بالقتل والسّبي والإسار ، وغير ذلك من الأسقام والمصائب . ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ أى أشدّ؛ من قولك : شقّ علىّ كذا يشقّ . ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ أى مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع . و « مِن » زائدة .

قوله تعالى : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ اختلف النحاة في رفع « مَثَل » فقال سيبويه : ارتفع بالابتداء والخبر محذوف ؛ والتقدير : وفيما يتلى عليكم مَثَل الجنة . وقال الخليل : ارتفع بالابتداء وخبره « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَار » أى صفة الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار؛ كقولك : قولى يقوم زيد؛ فقولى مبتدأ ، ويقوم زيد خبره؛ والمَثَل بمعنى الصفة موجود؛ قال الله تعالى : « ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ » وقال : « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » أى الصفة العليا ، وأنكره أبو علىّ وقال : لم يسمع مَثَل بمعنى الصفة؛ إنما معناه الشبه؛ ألا تراه يجرى مجراه في مواضعه ومتصرّفاته، كقولهم : مررت برجل مثلك؛ كما تقول : مررت برجل شبهك ؛ قال : ويفسد أيضا من جهة المعنى؛ لأن مثلا

إذا كان معناه صفة كان تقدير الكلام : صفة الجنة التى فيها أنهار، وذلك غير مستقيم؛ لأن الأنهار فى الجنة نفسها لا صفتها . وقال الزجاج : مثّل الله عزّ وجلّ لنا ما غاب عنا بما نراه؛ والمعنى : مَثَلُ الجنّة جَنّةٌ تجرى من تحتها الأنهار؛ وأنكره أبو علىّ فقال : لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه، وفى كلا الوجهين لا يصح ما قاله؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصح، لأنك إذا قلت : صفة الجنّة جنّة، فجعلت الجنة خبرا لم يستقم ذلك؛ لأن الجنة لا تكون الصفة، وكذلك أيضا شبه الجنّة جنّة؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التى بين المتماثلين، وهو حَدَث، والجنّة غير حَدَث؛ فلا يكون الأوّل والثانى . وقال الفرّاء : المَثَل مقحم للتأكيد؛ والمعنى : الجنّة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار؛ والعرب تفعل ذلك كثيرا بالمثل؛ كقوله : « ليس كَمِثْلِهِ شىء »؛ أى ليس هو كشىء . وقيل التقدير : صفة الجنّة التى وعد المتقون صفة جنّة « تجرى من تحتها الأنهار » . وقيل معناه : شبه الجنّة التى وعد المتقون فى الحسن والنعمة والخلود كشبه النار فى العذاب والشدّة والخلود؛ قاله مقاتل .

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ لا ينقطع؛ وفى الخبر : " إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى " وقد بيناه فى «التذكرة» . ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ أى وظلها كذلك؛ فحذف؛ أى ثمرها لا ينقطع، وظلّها لا يزول؛ وهذا ردّ على الجَهْمِيّة فى زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى . ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ أى عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ (٣٦)

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أى بعض من أوتى الكتاب يفرح بالقرآن، كابن سَلَام وسلمان، والذين جاءوا من الحبشة؛ فاللفظ عام، والمراد الخصوص. وقال قَتَادة: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يفرحون بنور القرآن؛ وقاله مجاهد

وابن زيد . وعن مجاهد أيضا أنهم مؤمنو أهل الكتاب . وقيل : هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم . وقال أكثر العلماء : كان ذكر الرحمن فى القرآن قليلا فى أول ما أنزل، فلما أسلم عبد الله بن سَلَام وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة ؛ فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؛ فأنزل الله تعالى : « قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ » فقالت قريش : ما بال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو إلهين، الله والرحمن ! والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون مُسَيْلِمَة الكذّاب ؛ فنزلت : « وَهُمْ بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ » « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ » ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن ؛ فأنزل الله تعالى : « وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ » . ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ يعنى مشركى مكة، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحزبون على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : من أعداء المسلمين من ينكر بعض ما فى القرآن ؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء ، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفا على « أعبد » . وقرأ أبو خالد بالرفع على الاستئناف ؛ أى أفرده بالعبادة وحده لاشريك له ، وأتبرأ عن المشركين، ومن قال : المسيح ابن الله وعزير ابن الله، ومن اعتقد التشبيه كاليهود . ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ أى إلى عبادته أدعو الناس . ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ أى أرجع فى أمورى كلها .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أى وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا؛ وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو عربى، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا . وقيل نظم الاية : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا، أى بلسان العرب؛ ويريد بالحكم ما فيه

من الأحكام . وقيل : المراد بالحكم العربي القرآن كله ؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم . ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم ﴾ أي أهواء المشركين في عبادة ما دون الله ، وفي التوجيه إلى غير الكعبة . ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ أي ناصر ينصرك . ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾ يمنعك من عذابه ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد الأمة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾

فيه مسئلتان :

الأولى ــ قيل إن اليهود عابوا على النبي صلى الله عليه وسلم الأزواج، وعيرته بذلك وقالوا : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن النساء ؛ فأنزل الله هذه الآية ،وذكرهم أمر داود وسليمان فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ أي جعلناهم بشرا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيص في الوحي .

الثانيــة ــ هذه الآية تدل على الترغيب في النكاح والحض عليه، وتنهى عن التبتل ، وهو ترك النكاح، وهذه سنة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية ، والسنة واردة بمعناها ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم " الحديث . وقد تقدم في «آل عمران»[1] . وقال : " من تزوج فقد استكمل نصف الدين فليتق الله في النصف الثاني " . ومعنى ذلك أن النكاح يعف عن الزنى ، والعفاف أحد الخصلتين اللتين ضمن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما الجنة فقال : " من وقاه الله شر اثنتين ولج الجنة ما بين لحييه وما بين رجليه " خرجه الموطأ وغيره . وفي صحيح البخاري عن أنس قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها فقالوا : وأين نحن من النبيّ صلى الله عليه وسلم ! قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم : أمّا أنا فإني أصلّي الليل أبدا ، وقال الآخر : إني أصوم الدهر فلا أُفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأُفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنّتي فليس مني" . خرجه مسلم بمعناه؛ وهذا بيّن . وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولو أجاز له ذلك لَاخْتَصَيْنَا، وقد تقدّم في « آل عمران » الحضّ على طلب الولد والرّد على من جهل ذلك . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول : إني لأتزوج المرأة وما لي فيها من حاجة، وأطؤها وما أشتهيها؛ قيل له : وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : حبّي أن يخرج الله منّي من يكاثر به النبيّ صلى الله عليه وسلم النبيّين يوم القيامة؛ وإني سمعته يقول : " عليكم بالأبكار فإنهن أَعْذَب أفواهًا وأحسن أخلاقًا وأَنْتَق أرحاما وإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة " يعني بقوله : " أنتق أرحاما " أَقْبَل للولد؛ ويقال للمرأة الكثيرة الولد ناتق؛ لأنها ترمي بالأولاد رميا . وخرج أبو داود عن مَعْقِل بن يَسَار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أصبت آمرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد، أفأتزوجها ؟ قال " لا " ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال : " تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم " . صححه أبو محمد عبد الحق وَحَسْبك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ عاد الكلام إلى ما آقترحوا من الآيات — ماتقدّم ذكره في هذه السورة — فأنزل ذلك فيهم؛ وظاهر الكلام حَظْر ومعناه النفي ؛ لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه . ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي لكل أمر قضاه الله كتاب عند الله؛ قاله الحسن . وقيل : فيه تقديم وتأخير، المعنى : لكل كتاب أجل؛ قاله الفراء والضحاك؛ أي لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل، ووقت معلوم؛ نظيره « لكل نبأ مستقر »؛

بيّن أن المراد ليس على اقتراح الأمم فى نزول العذاب، بل لكل أجل كتاب . وقيل : المعنى لكل مدة كتاب مكتوب، وأمر مقدّر لا تقف عليه الملائكة . وذكر الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » عن شَهر بن حَوْشَب عن أبى هُريرة قال : لما ٱرتقى موسى صلوات الله عليه وسلم طور سيناء رأى الجَبّارُ فى إصبعه خاتما، فقال: ياموسى ماهذا ؟ وهو أعلم به، قال : شىء من حُلى الرجال، قال : فهل عليه شىء من أسمائى مكتوب أو كلامى ؟ قال : لا، قال : فاكتب عليه « لكل أجل كتاب » .

قوله تعالى : يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ أى يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتى به « ويثبت » ما يشاء؛ أى يؤخره إلى وقته؛ يقال : محوت الكتاب محوا، أى أذهبت أثره . « ويثبت » أى ويثبته، كقوله : « والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » أى والذاكرات الله .

وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو وعاصم «وَيُثْبِتُ» بالتخفيف، وشدّد الباقون، وهى قراءة ٱبن عباس، وٱختيار أبى حاتم وأبى عبيد لكثرة من قرأ بها ؛ لقوله : « يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا» . وقال ٱبن عمر : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : "يمحو الله مايشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت". وقال ابن عباس : يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء؛ الخَلْق والخُلُق والأجل والرزق والسعادة والشقاوة؛ وعنه : هما كتابان سوى أم الكتاب، يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت، ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ الذى لايتغير منه شىء. قال القُشيرى : وقيل السعادة والشقاوة والخَلق والخُلُق والرزق لا تتغير؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء؛ وفى هذا القول نوع تحكّم .

قلت : مثل هذا لايدرك بالرأى والاجتهاد، وإنما يؤخذ توقيفا، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة فى جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم؛ وهذا

يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن مسعود وأبي وائل وكعب الأحبار وغيرهم ؛ وهو قول الكلبي . وعن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول : اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها ، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وقال ابن مسعود : اللهم إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم ، وإن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء واكتبني في السعداء ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وكان أبو وائل يكثر أن يدعو : اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامح واكتبنا سعداء ، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . وقال كعب لعمر بن الخطاب : لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . وقال مالك ابن دينار في المرأة التي دعا لها : اللهم إن كان في بطنها جارية فأبدلها غلاما فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . وقد تقدم في الصحيحين عن أبي هريرة قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره (١) فليصل رحمه" . ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من أحب" فذكره بلفظه سواء ؛ وفيه تأويلان : أحدهما — معنوي ، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر الحسن ، والأجر المتكرر ، فكأنه لم يمت . والآخر — يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ ؛ والذي في علم الله ثابت لا تبدل له ، كما قال : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . وقيل لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أحب أن يمد الله في عمره وأجله ويبسط له في رزقه فليتق الله وليصل رحمه" كيف يزاد في العمر والأجل ؟ ! فقال : قال الله عز وجل : « هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده » . فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته ، والأجل

---

(١) الأثر : الأجل .

الثانى — يعنى المسمى عنده — من حين وفاته إلى يوم يلقاه فى البَرْزَخ لا يعلمه إلا الله ؛ فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله فى أجل عمره الأول من أَجَل البَرْزَخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أَجَل عمره فى الدنيا ما شاء، فيزيده فى أجل البَرْزَخ؛ فإذا تحتم الأَجل فى علمه السابق امتنع الزيادة والنقصان؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » فتوافق الخبر والآية؛ وهذه زيادة فى نفس العمر وذات الأَجل على ظاهر اللفظ، فى اختيار حبر الأمة، والله أعلم . وقال مجاهد : يُحكم الله أمر السَّنة فى رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة؛ وقد مضى القول فيه . وقال الضحاك : يمحو الله ما يشاء من ديوان الحفَظَة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس . وقال الكَلْبى : يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه ، ورواه عن النبى صلى الله عليه وسلم . ثم سئل الكلبى عن هذه الآية فقال : يكتب القول كله ، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شىء ليس فيه ثواب ولا عقاب؛ مثل قولك : أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه ، وهو صادق، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب . وقال قَتَادة وابن زيد وسعيد بن جُبَير : يمحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده فى أم الكتاب؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدوى عن ابن عباس؛ قال النحاس : وحدثنا بكر بن سهل ، قال حدثنا أبو صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس « يمحو الله ما يشاء » يقول : يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه ، « ويثبت ما يشاء » فلا يبدله ، « وعنده أم الكتاب » يقول : جملة ذلك عنده فى أم الكتاب، الناسخ والمنسوخ . وقال سعيد بن جُبَير أيضا : يغفر ما يشاء — يعنى — من ذنوب عباده ، ويترك ما يشاء فلا يغفره . وقال عِكرمة : يمحو ما يشاء — يعنى بالتوبة — جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات [قال تعالى](1) : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا » الآية . وقال

(1) الزيادة من « البحر المحيط » .

الحسن : « يمحو الله ما يشاء » من جاء أجله « ويثبت » من لم يأت أجله . وقال الحسن يمحو الآباء ، ويثبت الأبناء . وعنه أيضا : يُنسى الحفظة من الذنوب ولا يُنسى . وقال السدى : « يمحو الله ما يشاء » يعنى : القمر « ويثبت » يعنى : الشمس ؛ بيانه قوله : « فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » وقال الربيع بن أنس : هذا فى الأرواح حالة النوم ؛ يقبضها عند النوم ، ثم إذا أراد موته فجأة أمسكه ، ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه ؛ بيانه قوله : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » الآية . وقال على بن أبى طالب : يمحو الله ما يشاء من القرون ، كقوله : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » ويثبت ما يشاء منها ، كقوله : « ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » فيمحو قرنا ، ويثبت قرنا . وقيل : هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله ، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله ؛ فهو الذى يمحو ، والذى يثبت : الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب ، فيمحوه الله من ديوان السيئات ، ويثبته فى ديوان الحسنات ؛ ذكره الثعلبى والماوردى عن ابن عباس . وقيل : يمحو الله ما يشاء — يعنى الدنيا — ويثبت الآخرة . وقال قيس بن عُبَاد فى اليوم العاشر من رجب : هو اليوم الذى يمحو الله فيه ما يشاء ، ويثبت فيه ما يشاء ؛ وقد تقدم عن مجاهد أن ذلك يكون فى رمضان . وقال ابن عباس : إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام ، من درة بيضاء ، لها دفتان من ياقوتة حمراء ، لله فى كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة ، يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء . وروى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله سبحانه يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فينظر فى الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء" . والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله ؛ وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء ، وقد تقدم أن من القضاء ما يكون واقعا محتوما ، وهو الثابت ؛ ومنه ما يكون مصروفا بأسباب ، وهو الممحو ، والله أعلم . الغزنوى : وعندى أن ما فى اللوح خرج من الغيب لإحاطة بعض الملائكة ؛ فيحتمل التبديل ؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال ؛ وما فى علمه من تقدير الأشياء لا يبدل . « وعنده أم الكتاب » أى أصل ما كتب من الآجال

وغيرها . وقيل : أمّ الكتاب اللوح المحفوظ الذى لا يبدّل ولا يغير . وقد قيل : إنه يجرى فيه التبديل . وقيل : إنما يجرى فى الجرائد الأخر . وسئل ابن عباس عن أمّ الكتاب فقال : عِلْم الله ما هو خالق، وما خلقه عاملون؛ فقال لعلمه : كن كتابا، ولا تبديل فى علم الله، وعنه أنه الذِّكْر؛ دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ » وهـذا يرجع معناه إلى الأوّل؛ وهو معنى قول كعب . قال كعب الأحبار : أمّ الكتاب عِلْم الله تعالى بمـا خلق وبما هو خالق .

قوله تعـالى : وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِـدُهُمْ ﴾ « ما » زائدة، والتقدير : وإن نرينك بعض الذى نعدهم، أى من العذاب؛ لقوله : « لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقوله : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَـا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » أى إن أريناك بعض ما وعدناهم ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ فليس عليك إلا البلاغ؛ أى التبليغ ؛ ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أى الجزاء والعقوبة .

قوله تعـالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعنى أهـل مكة . ﴿ أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ ﴾ أى نقصـدها . ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ اختلف فيـه ؛ فقال ابن عباس ومجاهد : « ننقصها من أطرافها » موت علمـائها وصلحائها . قال القُشَـيرى : وعلى هـذا فالأطراف الأشراف ؛ وقد قال ابن الأعرابى : الطَّرَف والطِّرْف الرجل الكريم ؛ ولكن هذا القول بعيـد ، لأن مقصود الآية : أنا أريناهم النقصان فى أمورهم ، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهـم ليس عن عجـز ؛ إلا أن يحمل قول ابن عبـاس على موت أحبار اليهـود والنصارى . وقال مجاهد أيضا

وقتادة والحسن : هو ما يغلب عليه المسلمون مما فى أيدى المشركين ؛ وروى ذلك عن ابن عباس، وعنه أيضا هو خراب الأرض حتى يكون العمران فى ناحية منها؛ وعن مجاهد : نقصانها خرابها وموت أهلها. وذكر وكيع بن الجراح عن طلحة بن عُمير عن عطاء بن أبى رباح فى قول الله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : ذهاب فقهائها وخيار أهلها . قال أبو عمر بن عبد البرّ : قول عطاء فى تأويل الآية حسن جدا، تلقاه أهل العلم بالقبول .

قلت : وحكاه المهدوىّ عن مجاهد وابن عمر، وهذا نص القول الأوّل نفسه؛ روى سفيان عن منصور عن مجاهد « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : موت الفقهاء والعلماء ؛ ومعروف فى اللغة أن الطَّرَف الكريم من كل شىء ؛ وهذا خلاف ما ارتضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم من قول ابن عباس . وقال عِكرِمة والشَّعبىّ : هو النقصان وقبض الأنفس . قال أحدهما : ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشّك (١) . وقال الآخر : لضاق عليك حشٌ تتبرز فيه . وقيل : المراد به هلاك من هلك من الأمم قبل قريش وهلاك أرضهم بعدهم ؛ والمعنى : أولم تر قريش هلاك من قبلهم، وخراب أرضهم بعدهم؟! أفلا يخافون أن يحل بهم مثل ذلك؛ وروى ذلك أيضا عن ابن عباس ومجاهد وابن جُرَيج . وعن ابن عباس أيضا أنه نقص بركات الأرض وثمارها وأهلها . وقيل : نقصها بجَوْر وُلَاتها .

قلت : وهذا صحيح معنى؛ فإن الجور والظلم يخرب البلاد، بقتل أهلها وانجلائهم عنها، وترفع من الأرض البركة، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ أى ليس يتعقب حكمه أحد بنقص ولا تغيير . ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أى الانتقام من الكافرين ، سريع الثواب للمؤمن . وقيل : لا يحتاج فى حسابه إلى رَوِيّة قلب، ولا عقد بنان؛ حسب ما تقدّم فى « البقرة » (٢) بيانه .

---

(١) الحش : البستان .

(٢) راجع ج ٢ ص ٤٣١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى من قبل مشركى مكة ، مكروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم . ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ أى هو مخلوق له مكر الماكرين، فلا يضر إلا بإذنه . وقيل : فلله خير المكر، أى يجازيهم به . ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من خير وشر، فيجازى عليه . ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكَافِرُ ﴾ كذا قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو . الباقون : « الكفار » على الجمع . وقيل : عنى أبو جهل . ﴿ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ أى عاقبة دار الدنيا ثوابا وعقابا، أو لمن الثواب والعقاب فى الدار الآخرة؛ وهذا تهديد ووعيد .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ قال قتادة : هم مشركو العرب؛ أى لست بنبى ولا رسول ، وإنما أنت متقول ؛ أى لما لم يأتهم بما اقترحوا قالوا ذلك . ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ ﴾ أى قل لهم يا محمد : « كفى بالله » أى كفى الله ﴿ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ بصدق وكذبكم . ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وهذا احتجاج على مشركى العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب — من آمن منهم — فى التفاسير . وقيل : كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم ؛ وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى وتميم الدارى والنجاشى وأصحابه ؛ قاله قتادة وسعيد بن جبير . وروى الترمذى عن ابن أخى عبد الله بن سلام قال : لما أريد [قتل] عثمان جاء عبد الله بن سلام فقال له عثمان : ماجاء بك؟ قال : جئت فى نصرتك ؛ قال : اخرج إلى الناس فاطردهم عنى، فإنك خارج خير لى من داخل؛ فخرج عبد الله بن سلام إلى الناس فقال : أيها الناس إنه كان اسمى فى الجاهلية فلان، فسمانى

رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، ونزلت فىّ آيات من كتاب الله، فنزلت فىّ « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » ونزلت فىّ « قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » الحديث . وقد كتبناه بكماله فى كتاب « التذكرة » . وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وكان اسمه فى الجاهلية حصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله . وقال أبو بشر : قلت لسعيد بن جُبَير « ومن عِندِه عِلم الكتاب » ؟ قال : هو عبد الله بن سَلَام .

قلت: وكيف يكون عبدالله بن سَلَام وهذه السورة مكية وآبن سَلَام ما أسلم إلا بالمدينة؟! ذكره الثعلبي . وقال القُشَيْرِيّ : وقال آبن جُبَير السورة مكية وآبن سَلَام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على آبن سَلَام؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل؛ وهو قول آبن عباس . وقال الحسن ومجاهد والضحاك : هو الله تعالى؛ وكانوا يقرءون « وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ » وينكرون على من يقول: هو عبد الله بن سَلَام وسلمان؛ لأنهم يرون أن السورة مكية، وهؤلاء أسلموا بالمدينة. وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « ومِن عِندِه عِلْمُ الْكِتَابِ » وإن كان فى الرواية ضعف؛ وروى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهرى عن سالم عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ وروى محبوب عن إسمعيل بن محمد اليمانيّ أنه قرأ كذلك — « وَمِنْ عِنْدِهِ » بكسر الميم والعين والدال « عُلِمَ الْكِتَابُ » بضم العين ورفع الكتاب. وقال عبد الله بن عطاء: قلت لأبى جعفر بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم زعموا أن الذى عنده علم الكتاب عبد الله بن سَلَام فقال : إنما ذلك علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية . وقيل : جميع المؤمنين ؛ والله أعلم. قال القاضى أبو بكر بن العربى : أما من قال إنه علىّ فعوّل على أحد وجهين : إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه. ولقول النبى صلى الله عليه وسلم : " أنا مدينة العلم وعلى بابها " وهو حديث باطل؛ النبيّ صلى الله عليه وسلم مدينة علم وأصحابه أبوابها؛ فمنهم الباب المنفسح، ومنهم المتوسط ، على قدر منازلهم فى العلوم . وأما من قال

أنهم جميع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يَعْلَم الكتاب، ويُدرك وجه إعجازه، ويشهد للنبيّ صلى الله عليه وسلم بصدقه .

قلت : فالكتاب على هذا هو القرآن . وأما من قال هو عبد الله بن سَلَام فعوّل على حديث الترمذيّ؛ وليس يمتنع أن ينزل فى عبد الله بن سَلَام شيئا ويتناول جميع المؤمنين لفظا ؛ ويعضده من النظام أن قوله تعالى : « وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى قريشا؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى ، الذين هم إلى معرفة النبوّة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان . قال النحاس : وقول من قال هو عبد الله بن سَلَام وغيره يحتمل أيضا؛ لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قرأ الكتب التى أنزلت قبل القرآن كان أمرا مؤكدا؛ والله أعلم بحقيقة ذلك .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة إبراهيم

مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدنيتين وقيل : ثلاث نزلت فى الذين حاربوا الله ورسوله وهى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا » إلى قوله : « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ »

قوله تعالى : الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ تقدم معناه . ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ ﴾ أى بالكتاب ، وهو القرآن ، أى بدعائك إليه . ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم ؛ وهذا على التمثيل ، لأن الكفر بمنزلة الظلمة ؛ والإسلام بمنزلة النور . وقيل : من البدعة إلى السنة ، ومن الشك إلى اليقين ؛ والمعنى متقارب . ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أى بتوفيقه إياهم ولطفه بهم ، والباء فى «بإذن ربهم» متعلقة بـ«تخرج » وأضيف الفعل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الداعى والمنذر الهادى . ﴿ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ هو كقولك : خرجت إلى زيد العاقل الفاضل من غير واو ، لأنهما شيء واحد ؛ والله هو العزيز الذى لامثل له ولا شبه . وقيل : « العزيز » الذى لا يغلبه غالب . وقيل : « العزيز » المنيع فى ملكه وسلطانه . « الحميد » أى المحمود بكل لسان ، والممجد فى كل مكان على كل حال . وروى مِقْسَم عن ابن عباس قال : كان قوم آمنوا بعيسى بن مريم ، وقوم كفروا به ، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم آمن به الذين كفروا بعيسى ، وكفر الذين آمنوا بعيسى ؛ فنزلت هذه الآية ، ذكره الماوردى .

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ أى ملكا وعبيداً واختراعا وخلقاً . وقرأ نافع وابن عامر وغيرهما « اللهُ » بالرفع على الابتداء « الذى » خبره . وقيل : « الذى » صفة ، والخبر مضمر ؛ أى الله الذى له ما فى السموات ومافى الأرض قادرٌ على كل شىء . الباقون بالخفض نعتا للعزيز الحميد فقدم النعت على المنعوت ؛ كقولك : مررت بالظريف زيد . وقيل : على البدل من « الحميد » وليس صفة ؛ لأن اسم الله صار كالعلم فلا يوصف ؛ كما لا يوصف بزيد وعمرو ؛ بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى ؛ لأن معناه أنه المنفرد بقدرة الإيجاد . وقال أبو عمرو : والخفض على التقديم والتأخير ، مجازه : إلى صراط الله العزيز الحميد الذى له مافى السموات وما فى الأرض . وكان يعقوب إذا وقف على « الحميد » رفع ، وإذا وصل خفض على النعت . قال ابن الأنبارى : من خفض وقف على « وما فى الأرض » .

قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قد تقدم معنى الويل فى « البقرة »[1] وقال الزجاج : هى كلمة تقال للعذاب والهلكة . « من عذاب شديد » أى فى جهنم .
﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى يختارونها على الآخرة ، والكافرون يفعلون ذلك . « فالذين » فى موضع خفض صفة لهم . وقيل : فى موضع رفع خبر ابتداء مضمر ؛ أى هم الذين . وقيل : « الذين يستحبون » مبتدأ وخبره « أولئك » . وكل من آثر الدنيا وزهرتها ، واستحب

(١) راجع ج ٢ ص ٧ طبعة أولى أو ثانية .

البقاء فى نعيمها على النعيم فى الآخرة، وصدّ عن سبيل الله — أى صرف الناس عنه وهو دين الله، الذى جاءت به الرسل، فى قول ابن عباس وغيره — فهو داخل فى هذه الآية؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : "إن أخوف ما أخاف على أمتى الأئمة المضلون" وهو حديث صحيح ، وما أكثر ما هم فى هذه الأزمان،والله المستعان . وقيل : « يستحبون » أى يلتمسون الدنيا من غير وجهها؛ لأن نعمة الله لا تلتمس إلا بطاعته دون معصيته . ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى يطلبون لها زيغا وميلا لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم . والسبيل تذكر وتؤنث . والعوج بكسر العين فى الدين والأمر والأرض، وفى كل ما لم يكن قائما؛ وبفتح العين فى كل ما كان قائما، كالحائط والرمح ونحوه؛ وقد تقدم فى « آل عمران »[1] وغيرها . ﴿ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أى ذهاب عن الحق بعيد عنه .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ ﴾ أى قبلك يا محمد ﴿ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ أى بلغتهم؛ ليبينوا لهم أمر دينهم ؛ ووحد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة ؛ فهى آسم جنس يقع على القليل والكثير ؛ ولا حجة للعجم وغيرهم فى هذه الآية ؛ لأن كل من تُرجم له ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ترجمة يفهمها لزمته الحجة ؛ وقد قال الله تعالى : «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا» . وقال صلى الله عليه وسلم : "أرسل كل نبى إلى أمته بلسانها وأرسلنى الله إلى كل أحمر وأسود من خلقه" . وقال صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لم يؤمن بالذى أُرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار" . خرجه مسلم، وقد تقدم . ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ردّ على القدرية فى نفوذ المشيئة ، وهو مستأنف ، وليس بمعطوف على

(١) راجع جـ ٤ ص ١٥٤ طبعة أولى أو ثانية .

« ليبين » لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا الإضلال . ويجوز النصب فى « يضل » لأن الإرسال صار سببا للإضلال ؛ فيكون كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » وإنما صار الإرسال سببا للإضلال لأنهم كفروا به لما جاءهم ؛ فصار كأنه سبب لكفرهم . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ أى بحجتنا وبراهيننا ؛ أى بالمعجزات الدالة على صدقه . قال مجاهد : هى التسع الآيات[(١)] . ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ نظيره قوله تعالى لنبينا عليه السلام أول السورة : « لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » . وقيل : « أَنْ » هنا بمعنى أى ، كقوله تعالى : « وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا » أى امشوا .

قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ أى قل لهم قولا يتذكرون به أيام الله تعالى . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : بنعم الله عليهم ؛ وقاله أبىّ بن كعب ورواه مرفوعا ؛ أى بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التيه ، إلى سائر النعم ؛ وقد تسمى النعم بالأيام ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم[(٢)] :

* وأيامٍ لنا غُرٍّ طوالٍ *

---

(١) الآيات التسع هى : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا و يده والسنين ونقص من الثمرات .

(٢) البيت من معلقته وتمامه :

* عصينا الملك فيها أن ندينا *

وقد يكون تسميتها غرا لعلوهم على الملك وامتناعهم منه ، فأيامهم غر لهم ، وطوال على أعدائهم ؛ وعليه فلا دليل فى البيت على أن الأيام بمعنى النعم . وأيام بالجر عطف على (بأنا) فى البيت قبله ، ويجوز أن تجعل الواو بدلا من رب .

وعن ابن عباس أيضا ومقاتل : بوقائع الله في الأمم السابقة ؛ يقال فلان عالم بأيام العرب، أي بوقائعها . قال ابن زيد : يعني الأيام التي انتقم فيها من الأمم الخالية، وكذلك روى ابن وهب عن مالك قال : بلاؤه . وقال الطبري : وعظهم بما سلف في الأيام الماضية لهم ؛ أي بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة ؛ وقد كانوا عبيدا مستذلّين ؛ واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "بينا موسى عليه السلام في قومه يُذكّرهم بأيام الله وأيام الله بلاؤه ونعماؤه" وذكر حديث الخضر ؛ ودلّ هذا على جواز الوعظ المرقّق للقلوب، المقوّي لليقين، الخالي من كلّ بدعة ، والمنزّه عن كل ضلالة وشبهة . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي في التذكير بأيام الله ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أي دلالات . ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أي كثير الصبر على طاعة الله، وعن معاصيه . ﴿ شَكُورٍ ﴾ لنعم الله . وقال قتادة : هو العبد ؛ إذا أُعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر — ثم تلا هذه الآية — « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » " . ونحوه عن الشّعبيّ موقوفا . وتوارى الحسن البصريّ عن الحجّاج سبعَ سنين، فلما بلغه موتُه قال : اللهم قد أمتّه فأمِتْ سُنّته، وسجد شكرا ، وقرأ « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » . وإنما خص بالآيات كل صبار شكور لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها؛ كما قال : « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا » وإن كان منذرا للجميع .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ تقدم فى «البقرة»(1) مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ قيل : هو من قول موسى لقومه . وقيل : هو من قول الله؛ أى واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا . و «تَأَذَّن» وأذن بمعنى أعلم؛ مثل أوعد وتوعد؛ روى معنى ذلك عن الحسن وغيره . ومنه الأذان؛ لأنه إعلام؛ قال الشاعر :

فلم نشعر بضوء الصبح حتى * سمعنا فى مجالسنا الأذينا

وكان ابن مسعود يقرأ « وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ » والمعنى واحد . ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أى لئن شكرتم إنعامى لأزيدنكم من فضلى . الحسن : لئن شكرتم نعمتى لأزيدنكم من طاعتى . ابن عباس : لئن وحدتم وأطعتم لأزيدنكم من الثواب، والمعنى متقارب فى هذه الأقوال؛ والآية نص فى أن الشكر سبب المزيد؛ وقد تقدم فى « البقرة »(2) ما للعلماء فى معنى الشكر . وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال : ألا تتقوى بنعمه على معاصيه . وحكى عن داود عليه السلام أنه قال : أى رب كيف أشكرك، وشكرى لك نعمة مجددة منك علىّ . قال : ياداود الآن شكرتنى .

قلت : فحقيقة الشكر على هذا الاعتراف بالنعمة للمنعم ، وألا يصرفها فى غير طاعته ؛ وأنشد الهادى وهو يأكل :

أنالك رزقه لتقوم فيه * بطاعته وتشكر بعض حقه
فلم تشكر لنعمته ولكن * قويت على معاصيه برزقه

فغص باللقمة، وخنقته العبرة . وقال جعفر الصادق : إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فتأهب للمزيد . ﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ أى جحدتم حقى . وقيل : نعمى؛ وعد بالعذاب على الكفر، كما وعد بالزيادة على الشكر، وحذفت الفاء التى فى جواب الشرط من «إن» للشهرة .

---

(1) راجع جـ ١ ص ٣٣١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (2) راجع جـ ٢ ص ١٧١ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى لا يلحقه بذلك نقص، بل هو الغنى . «الحميد» أى المحمود .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ النبأ الخبر، والجمع الأنباء؛ قال :(١)

« ألم يأتيك والأنباء تنمي »

ثم قيل : هو من قول موسى . وقيل : من قول الله ؛ أى واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا . وقيل : هو ابتداء خطاب من الله تعالى . وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهور قصه الله فى كتابه . وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أى لا يحصى عددهم إلا الله ؛ ولا يعرف نسبهم إلا الله ؛ والنسابون وإن نسبوا إلى آدم فلا يدعون إحصاء جميع الأمم ، وإنما ينسبون البعض، ويمسكون عن نسب البعض؛ وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع النسابين ينسبون إلى معدّ بن عدنان ثم زادوا فقال : "كذب النسابون إن الله يقول « لا يعلمهم إلا الله » " . وقد روى عن عروة بن الزبير أنه قال : ماوجدنا أحدا يعرف ما بين عدنان وإسمعيل . وقال ابن عباس : بين عدنان وإسمعيل ثلاثون

(١) القائل هو : قيس بن زهير ، وتمام البيت : * بما لاقت لبون بنى زياد * وبعده :

ومحبسها على القرشى تشرى * بأدراع وأسياف حداد

وبنو زياد : الربيع بن زياد وإخوته ، أخذ لقيس درعا فاستاق قيس إبل الربيع لمكة وباعها لعبد الله بن جدعان ، وهو مراده بالقرشى — بدروع وسيوف .

أبا لا يعرفون . وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ « لا يعلمهم إلا الله » : كذب النسابون .
﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالحجج والدلالات . ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى جعل أولئك القوم أيدى أنفسهم فى أفواههم ليعضوها عضًا مما جاء به الرسل؛ إذ كان فيه تسفيه أحلامهم، وشتم أصنامهم؛ قاله ابن مسعود، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد، وقرأ « عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » . وقال ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم . وقال أبو صالح : كانوا إذا قال لهم نبيهم أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم : أن اسكت، تكذيبا له ، وردًا لقوله؛ وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى؛ والضميران للكفار؛ والقول الأول أصحها إسنادا؛ قال أبو عبيد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن أبى إسحق عن أبى الأحوص عبد الله فى قوله تعالى « فردوا أيديهم فى أفواههم » قال عَضُّوا عليها غيظا؛ وقال الشاعر :

لو أنّ سلمى أبصرتْ تخدُّدِى[1] ... ودِقَّةً فى عظم ساقى ويَدِى
وبُعْدَ أهلى وجفاءَ عُوَّدِى ... عَضَّتْ من الوَجْدِ بأطرافِ اليدِ

وقد مضى هذا المعنى فى « آل عمران » مجوّدا[2]، والحمد لله . وقال مجاهد وقتادة : ردّوا على الرسل قولهم وكذبوهم بأفواههم؛ فالضمير الأول للرسل، والثانى للكفار . وقال الحسن وغيره : جعلوا أيديهم فى أفواه الرسل ردًّا لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار، والثانى للرسل . وقيل معناه : أومأوا للرسل أن يسكتوا . وقال مقاتل : أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم . وقيل : ردّ الرسل أيدى القوم فى أفواههم . وقيل : إن الأيدى هنا النِّعم؛ أى ردّوا نِعم الرسل بأفواههم ، أى بالنطق والتكذيب؛ ومجىء الرسل بالشرائع نِعَمٌ؛ والمعنى : كذّبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل . و « فى » بمعنى الباء؛ يقال : جلست فى البيت وبالبيت ، وحروف الصفات يقام بعضها مقام بعض . وقال أبو عبيدة : هو ضرب مَثَل؛ أى لم يؤمنوا ولم يُجيبوا؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن

---

(١) التخدد : أن يضطرب اللحم من الهزال . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٨٢ طبعة أولى أو ثانية .

الجواب وسكت قد ردّ يده فى فيه ؛ وقاله الأخفش أيضا . وقال القتبيّ : لم نسمع أحدا من العرب يقول : ردّ يده فى فيه إذا ترك ما أمر به ، وإنما المعنى : عضوا على الأيدى حنقا وغيظا ؛ لقول الشاعر :

تردّون فى فيه غِشّ الحسو * دِ حتى يعضّ علىّ الأكُفّا

يعنى أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه وكفّيه . وقال آخر :

قد افنى أناملَه أزْمُه[1] * فأضحى يعضّ علىّ الوظيفا

وقالوا : — يعنى الأمم للرسل — ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ ﴾ أى بالإرسال على زعمكم ؛ لا أنهم أقرّوا أنهم أرسلوا . ﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ ﴾ أى فى ريب ومرية . ﴿ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد . ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أى موجب للريبة ؛ يقال : أربته إذ فعلت أمرا أوجب ريبة وشكا ؛ أى نظن أنكم تطلبون الملك والدنيا .

قوله تعالى : قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ استفهام معناه الإنكار ؛ أى لا شك فى الله أى فى توحيده ؛ قاله قتادة . وقيل : فى طاعته . ويحتمل وجها ثالثا : أفى قدرة الله شك ؟ ! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها ؛ يدل عليه قوله : ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ خالقها ومخترعها ومنشئها وموجدها بعد العدم ؛ لينبه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا له . ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ أى إلى طاعته بالرسل والكتب . ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ قال أبو عبيد : « من » زائدة . وقال سيبويه : هى للتبعيض ؛ ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع .

(١) أزمة : عضا ؛ والوظيف لكل ذى أربع : ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق .

وقيل : « من » للبدل وليست بزائدة ولا مُبعِّضة ؛ أى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب . ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ يعنى الموت ، فلا يعذبكم فى الدنيا . ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ ﴾ أى ما أنتم . ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ فى الهيئة والصورة ؛ تأكلون مما نأكل ، وتشربون مما نشرب ، ولستم ملائكة . ﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الأصنام والأوثان . ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة ظاهرة ؛ وكان هذا محالا منهم ؛ فإن الرسل ما دعوا إلا ومعهم المعجزات .

قوله تعالى : قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أى فى الصورة والهيئة كما قلتم . ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أى يتفضّل عليه بالنبوة . وقيل : بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية . وقال سهل بن عبد الله : بتلاوة القرآن وفهم ما فيه .

قلت : وهذا قول حسن ؛ وقد خرج الطبرى من حديث ابن عمر قال قلت لأبى ذر : يا عم أوصنى ؛ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتنى فقال : "ما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا ولله فيه صدقة يمنّ بها على من يشاء من عباده وما منّ الله تعالى على عباده بمثل أن يلهمهم ذكره" . ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ ﴾ أى بحجة وآية ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بمشيئته ، وليس ذلك فى قدرتنا ؛ أى لا نستطيع أن نأتى بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته ؛ فلفظه لفظ الخبر، ومعناه النفى ، لأنه لا يُحظَر على أحد ما لا يقدر عليه . ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ « ما » استفهام فى موضع رفع بالابتداء، و « لنا » الخبر، وما بعدها فى موضع الحال؛ التقدير : أى شيء لنا فى ترك التوكل على الله . ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ أى الطريق الذى يوصل إلى رحمته، وينجى من سخطه ونقمته . ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ ﴾ لام قسم؛ مجازه: والله لنصبرن ﴿ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ به؛ أى من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثقة بالله أنه يكفينا ويثيبنا ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ اللام لام قسم؛ أى والله لنخرجنكم . ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ ﴾ أى حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا؛ قاله الطبرى وغيره . قال ابن العربى: وهو غير مفتقر إلى هذا التقدير؛ فإن « أو » على بابها من التخيير؛ خيّر الكفارُ الرسلَ بين أن يعودوا فى ملتهم أو يخرجوهم من أرضهم؛ وهذه سيرة الله تعالى فى رسله وعباده؛ ألا ترى إلى قوله: « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا » وقد تقدم هذا المعنى فى « الأعراف » (١) وغيرها . ﴿ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أى إلى ديننا ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أى مقامه بين يدى يوم القيامة؛ فأضيف المصدر إلى الفاعل . والمَقام مصدر كالقيام؛ يقال : قام قياما ومَقاما؛ وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به . والمقام بفتح الميم مكان الإقامة ، وبالضم فعل الإقامة ؛ و « ذلك لمن خاف مقامى » أى قيامى عليه ، ومراقبتى له ؛ قال الله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » . وقال الأخفش : « ذلك لمن خاف مقامى » أى عذابى، « وخاف وعيد » أى القرآن وزواجره . وقيل : إنه العذاب . والوعيد الاسم من الوعد .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٥٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا﴾ أى وآستنصروا؛ أى أُذن للرسل فى الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم؛ قاله ابن عباس وغيره ، وقد مضى فى « البقرة »[١]. ومنه الحديث: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يَسْتَفْتِح بصعاليك المهاجرين، أى يَستنصر. وقال ابن زيد: استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش : «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية؛ وروى عن ابن عباس . وقيل قال الرسول : "إنهم كذّبونى فافتح بينى وبينهم فَتْحًا" وقالت الأمم: إن كان هؤلاء صادقين فعذّبنا؛ عن ابن عباس أيضا؛ نظيره «آئتنا بِعذابِ اللهِ إن كنت مِن الصادِقين » « آئتنا بِمـا تعِدنا إن كنت مِن المرسلين » . ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الجبّار المتكبر الذى لايرى لأحد عليه حقا؛ هكذا هو عند أهل اللغة، ذكره النحاس . والعنيد المعاند للحق والمجانب له ، عن آبن عباس وغيره؛ يقال : عَنَـد عن قومه أى تباعد عنهم . وقيل : هو من العَنَد، وهو الناحية وعاند فلان أى أخذ فى ناحية مُعْرِضا؛ قال الشاعر :

إذا نزلتُ فآجعلُونى وَسَطَا ٭ إنى كبيرٌ لا أُطِيقُ الْعُنَّـدَا

وقال الهروى قوله تعالى : « جبار عنيد » أى جائر عن القصد؛ وهو العَنُود والعَنِيد والعاند؛ وفى حديث آبن عباس وسئل عن المستحاضـة فقال : إنه عِرْقٌ عانِدٌ . قال أبو عبيد : هو الذى عَنَد وبَغَى كالإنسان يعاند؛ فهذا العرق فى كثرة ما يخرج منه بمنزلته . وقال شَمِر : العاند الذى لا يرقأ . وقال عمر يذكر سيرته : أَضُمُّ العَنُود؛ قال الليث : العنود من الإبل الذى لا يخالطها إنما هو فى ناحيـة أبدا ؛ أراد من هَمَّ بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفتُ به إليها . وقال مقاتل : العنيد المتكبر . وقال ابن كَيْسان : هو الشامخ بأنفه . وقيل : العَنُود والعَنِيد الذى

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٦ وما بعدها طبعة ثانية .

يتكبر على الرسل ويذهب عن طريق الحق فلا يسلكها ؛ تقول العرب : شر الإبل العنود الذى يخرج عن الطريق . وقيل : العنيد العاصى . وقال قتادة : العنيد الذى أبى أن يقول لا إله إلا الله .

قلت : والجبار والعنيد فى الآية بمعنى واحد، وإن كان اللفظ مختلفا ، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد أى متكبر . وقيل : إن المراد به فى الاية أبو جهل؛ ذكره المهدوى . وحكى الماوردى فى كتاب « أدب الدنيا والدين » أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما فى المصحف فخرج له قوله عز وجل : « وٱستفتحوا وخاب كل جبارٍ عنيدٍ » فمزق المصحف وأنشأ يقول :

أَتُوعِدُ كُلَّ جبّارٍ عَنِيدٍ * فها أنا ذاكَ جبّارٌ عنِيدُ
إذا ماجئتَ ربَّكَ يومَ حَشْرٍ * فَقُلْ يا ربِّ مزَّقَنِي الوليدُ

فلم يلبث أياما حتى قُتل شرّ قِتلة، وصُلب رأسه على قصره، ثم على سُور بلده .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أى من وراء ذلك الكافر جهنم ، أى من بعد هلاكه . ووراء بمعنى بعد؛ قال النابغة :

حلَفتُ فلم أترُكْ لِنفسكَ رِيبةً * وليس وراءَ اللهِ للمرء مذهبُ

أى بعد الله جلّ جلالُه ، وكذلك قوله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى من بعده، وقوله تعالى : « ويكفرون بِما وراءه » أى بما سواه؛ قاله الفراء . وقال أبو عبيد : بما بعده . وقيل : « من ورائه » أى من أمامه، ومنه قول الشاعر :

ومِنْ ورائكَ يومٌ أنتَ بالِغُهُ * لا حاضرٌ مُعجِزٌ عنه ولا بادِى

وقال آخر :

أَتَرْجُو بنو مروانَ سمعِى وطاعتِى * وقومى تميمٌ والفلاةُ ورائِيا

وقال لبيد :

أليس ورائِى إنْ [تراختْ] (١) منيّتِى * لُزومُ العَصا تُحنَى عليها الأصابِعُ

(١) كذا فى ديوانه، وفى الأصل : « إن بلغت منيتى » .

يريد أمامي . وفي التنزيل « وَكَانَ وَرَاءَهُم مَلِكٌ » أي أمامهم ؛ وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو علي قُطْرُب وغيرهما . وقال الأخفش : هو كما يقال هذا الأمر من ورائك ، أي سوف يأتيك ، وأنا من وراء فلان أي في طلبه وسأصل إليه . وقال النحاس : في قوله « مِن وَرائِهِ جَهنم » أي من أمامه ، وليس من الأضداد ولكنه من توارى ؛ أي استتر . وقال الأزهري : إن وراء تكون بمعنى خلف وأمام فهو من الأضداد ، وقاله أبو عبيدة أيضا ، واشتقاقهما مما توارى واستتر ، فجهنم توارى ولا تظهر ، فصارت من وراء لأنها لا ترى ؛ حكاه ابن الأنباري وهو حسن .

قوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ أي من ماء مثل الصديد ، كما يقال للرجل الشجاع أسد ، أي مثل الأسد ؛ وهو تمثيل وتشبيه . وقيل : هو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم . وقال محمد بن كعب القُرَظي والربيع بن أنَس : هو غُسَالة أهل النار ، وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزواني . وقيل : هو من ماء كرهته تصدّ عنه ، فيكون الصديد مأخوذا من الصدّ . وذكر ابن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو عن عُبيد الله بن بُسْر عن أبي أُمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ » قال : "يُقرَّب إلى فِيه فيكرهه فإذا أُدنى منه شَوَى وجهه ووقعت فَرْوة رأسه فإذا شربه قطّع أمعاءه حتى تخرج من دبره يقول الله « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » ويقول « وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ »" خرجه الترمذي ، وقال : حديث غريب ؛ وعُبيد الله بن بُسْر الذي روى عنه صفوان بن عمرو حديث أبي أمامة لعله أن يكون أخا عبد الله ابن بُسْر . ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ أي يتحسّاه جرعا لا مرة واحدة لمرارته وحرارته . ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أي يبتلعه ؛ يقال : جرع الماء واجترعه وتجرعه بمعنى . وساغ الشّرابُ في الحلق يسوغ سَوْغا إذا كان سَلِسا سهلا ، وأساغه الله إساغةً . و « يكاد » صلة ؛ أي يسيغه بعد إبطاء ، قال الله تعالى : « وما كادوا يفعلون » أي فعلوا بعد إبطاء ؛ ولهذا قال : « يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ »(١) فهذا يدل على الإساغة . وقال ابن عباس : لايجيزه ولا يمر به(٢) . ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ

---

(١) آية ٢٠ من سورة الحج . (٢) كذا في الأصل ؛ ولعله « لا يجيزه ولا يمرأ به » .

منْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ قال ابن عباس : أى يأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ، ومن فوقه وتحته ومن قدّامه وخلفه ، كقوله : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » . وقال إبراهيم التيمى : يأتيه من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره؛ للآلام التى فى كل مكان من جسده . وقال الضحاك : إنه ليأتيه الموت من كل ناحية ومكان حتى من إبهام رجليه . وقال الأخفش : يعنى البلايا التى تصيب الكافر فى النار سماها موتا ، وهى من أعظم الموت . وقيل : إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وُكِّل به نوع من العذاب؛ لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها فى فرد لحظة؛ إما حية تَنهشه، أو عقرب تَلسبه (١) ، أو نار تَسفعه ، أو قيد برجليه ، أو غُلّ فى عنقه ، أو سلسلة يقرن بها ، أو تابوت يكون فيه ، أو زقوم أو حميم ، أو غير ذلك من العذاب . وقال محمد بن كعب : إذا دعا الكافر فى جهنم بالشراب فرآه مات موتاتٍ ، فإذا دنا منه مات موتاتٍ، فإذا شرب منه مات موتاتٍ ؛ فذلك قوله : « وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » . قال الضحاك : لا يموت فيستريح . وقال ابن جريج : تعلق رُوحه فى حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة ؛ ونظيره قوله : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا » . وقيل : يخلق الله فى جسده آلاما كل واحد منها كألم الموت . وقيل : « وما هو بميت » لتطاول شدائد الموت به ، وامتداد سكراته عليه ؛ ليكون ذلك زيادة فى عذابه .

قلت : ويظهر من هذا أنه يموت ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « وَلَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » وبذلك وردت السّنة ؛ فأحوال الكفار أحوال من استولى عليه سكرات الموت دائما ، والله أعلم . ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ ﴾ أى من أمامه . ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أى شديد متواصل الآلام من غير فتور ؛ ومنه قوله : « وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » أى شدة وقوة . وقال فُضيل بن عِياض فى قول الله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » قال : حبس الأنفاس .

---

(١) تلسبه : تلدغه .

قوله تعالى : مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)

قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ اختلف النحويون في رفع «مَثَل» فقال سيبويه : ارتفع بالابتداء والخبر مضمر؛ التقدير : وفيما يُتلى عليكم أو يُقَصّ «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» ثم ابتدأ فقال : «أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ» أي كَمَثَل رماد ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ . وقال الزجاج : أي مَثَل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالهم كرماد، وهو عند الفراء على إلغاء المَثَل؛ التقدير : والذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ؛ وعنه أيضا أنه على حذف مضاف؛ التقدير : مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد؛ وذكر الأول عنه المهدويّ، والثاني القُشَيريّ والثعلبيّ. ويجوز أن يكون مبتدأ كما يقال : صفة فلان أسمر؛ «فمَثَل» بمعنى صفة . ويجوز في الكلام بجر «أعمالهم» على بدل الاشتمال من «الذين» واتصل هذا بقوله : «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» والمعنى : أعمالهم مُحْبَطة غير مقبولة . والرماد ما بقي بعد احتراق الشيء؛ فضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفّار في أنه يمحقها كما تمحق الرِّيحُ الشديدة الرَّمادَ في يوم عاصف . والعصف شدة الريح؛ وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى . وفي وصف اليوم بالعُصُوف ثلاثة أقاويل ؛ أحدها ـ أن العُصُوف وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصف به ؛ لأن الرّيح تكون فيه، فجاز أن يقال : يوم عاصف، كما يقال : يوم حارّ ويوم بارد، والبرد والحرّ فيها . والثاني ـ أن يريد «في يوم عاصف» الريح؛ لأنها ذكرت في أول الكلمة، كما قال الشاعر،

• إذا جاء يومٌ مُظْلِمُ الشّمسِ كاسِفُ •

يريد كاسف الشمس فحذف؛ لأنه قد مر ذكره؛ ذكرهما الهَرَويّ . والثالث ـ أنه من نعت الريح ؛ غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل : جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ ، ذكره

الثعلبيّ والماورديّ . وقرأ ابن إسحق وإبراهيم بن أبى بكر «فى يومِ عاصفٍ»[١] . ﴿ لَا يَقْدِرُونَ ﴾ يعنى الكفار . ﴿ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ يريد فى الآخرة ؛ أى من ثواب ما عملوا من البرّ فى الدنيا ، لإحباطه بالكفر . ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ أى الخسران الكبير ؛ وإنما جعله كبيرا بعيدا لفوات استدراكه بالموت .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ الرؤية هنا رؤية القلب ؛ لأن المعنى : ألم ينته علمك إليه . وقرأ حمزة والكسائى — « خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » . ومعنى « بالحق » ليستدل بهما على قدرته . ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أيها الناس ؛ أى هو قادر على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء ؛ فلا تعصوه فإنكم إن عصيتموه يذهبكم ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أفضل وأطوع منكم ؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة فى الإبدال . ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أى منيع متعذر .

قوله تعالى : وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)

---

(١) هذه القراءة بإضافة يوم إلى عاصف ، ومن قرأ بها أقام الصفة مقام الموصوف ، أى فى يوم ريح عاصف .

قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي برزوا من قبورهم ، يعني يوم القيامة . والبُرُوز الظّهور . والبَراز المكان الواسع لظهوره؛ ومنه آمرأة بَرْزة أي تظهر للناس؛ فمعنى « برزوا » ظهروا من قبورهم . وجاء بلفظ الماضي ومعناه الاستقبال ، وآتصل هذا بقوله : « وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » أي وقاربوا لما آستفتحوا فأهلكوا ، ثم بعثوا للحساب فبرزوا لله جميعا لايسترهم عنه ساتر . « لِلَّهِ » لأجل أمر الله إياهم بالبروز . ﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَاءُ ﴾ يعني الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ يجوز أن يكون تَبَعٌ مصدرا؛ التقدير : ذوي تَبَع . ويجوز أن يكون جمع تابع؛ مثل حارس وحَرَس، وخادم وخَدَم، وراصد ورَصَد، وباقر وبَقَر . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ ﴾ أي دافعون عنا ﴿ مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي شيئا ، و «مِن» صلة؛ يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع . ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ أي لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه . وقيل : لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها . وقيل : لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه . ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴾ هذا ابتداء خبره « أجزعنا » أي : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أي من مهرب وملجأ . ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، وبمعنى الأسم؛ يقال : حَاصَ فلان عن كذا أي فرّ وزاغ يَحِيص حَيْصًا وحُيُوصًا وحَيَصَانًا؛ والمعنى : ما لنا وجه نتباعد به عن النار . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يقول أهل النار إذا آشتدّ بهم العذاب تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا هَلُمّ فلنجزع فيجزعون و يصيحون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لاينفعهم قالوا « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من مَحِيص»" . وقال محمد بن كعب القُرَظيّ : ذُكر لنا أن أهل النار يقول بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون ، فهلمّ فلنصبر؛ فلعلّ الصّبر ينفعنا كما صبر أهل الطّاعة على طاعة الله فنفعهم الصّبر إذ صبروا ؛ فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا، فطال صبرهم فجزعوا، فنادوا: «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من مَحِيص » أي مَنجىً، فقام إبليس عند ذلك فقال : « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ

ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم» يقول: لست بمغنٍ عنكم شيئا «وما أنتم بمصرخىَّ إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل» الحديث بطوله، وقد كتبناه فى كتاب « التذكرة » بكماله .

قوله تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر ﴾ قال الحسن : يقف إبليس يوم القيامة خطيبا فى جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعا . ومعنى «لما قضى الأمر» أى حصل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار، على ما يأتى بيانه فى « مريم »(١) عليها السلام . ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ يعنى البعث والجنة والنار وثواب المطيع وعقاب العاصى فصدقكم وعده، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب فأخلفتكم . وروى ابن المبارك من حديث عُقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة قال : "فيقول عيسى أدلكم على النبى الأمى فيأتون فيأذن الله لى أن أقوم فيثور مجلسى من أطيب ريح شمها أحد حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى إلى ظفر قدمى ثم يقول الكافرون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذى أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فاشفع لنا فإنك أضللتنا فيثور مجلسه من أنتن ريح شمها أحد ثم يعظم نحيبهم ويقول عند ذلك : «إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم» الآية . «وعد الحق» هو إضافة الشىء إلى نفسه كقولهم : مسجد الجامع؛ قال الفراء قال البصريون : وعدكم وعد اليوم الحق أو وعدكم وعد الوعد الحق فصدقكم، فحذف المصدر لدلالة الحال . ﴿ وما كان لى عليكم من سلطان ﴾ أى من حجة وبيان؛ أى ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزينته لكم فى الدنيا ﴿ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ﴾ أى أغويتكم فتابعتمونى . وقيل : لم أقهركم على ما دعوتكم إليه . « إلا أن دعوتكم » هو استثناء منقطع؛ أى لكن دعوتكم بالوسواس فاستجبتم لى باختياركم « فلا تلومونى ولوموا أنفسكم » . وقيل : « وما كان لى عليكم من سلطان » أى على قلوبكم وموضع إيمانكم لكن

---

(١) فى تفسير قوله تعالى « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر » آية ٣٩ [illegible]

دعوتكم فاستجبتم لى، وهذا على أنه خَطَب العاصىَ المؤمنَ والكافرَ الجاحد؛ وفيه نظر لقوله : « لمـّا قضى الأمر » فإنه يدل على أنه خَطَب الكفّارَ دون العاصين الموحّدين ؛ والله أعلم . ﴿ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ إذا جئتمونى من غير حجـة . ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أى بمغيثكم . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِىَّ ﴾ أى بمغيثىّ . والصّارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النّصرة والمعاونة، والمُصْرِخ هو المُغيث . قال سَلَامة بن جَنْدَل :

كنّا إذا ما أتانا صارِخٌ فَـزِعٌ * كَانَ الصُّراخُ له قَرْعَ الظَّنَابِيب[1]

قال أمية بن أبى الصَّلْت :

ولا تَجزعوا إنّى لكم غيرُ مُصْرِخٍ * وليس لكم عندى غَنَاءٌ ولا نَصْرُ

يقـال : صَرَخ فلان أى آستغاث يَصرُخ صَرْخا وصُرَاخا وصَرْخَةً . وآصطرخ بمعنى صَرَخ . والتّصرخ تَكلُّف الصُّراخ . والمُصْرِخ المُغيث، والمستصرِخ المستغيث؛ تقول منه : آستصرخنى فأصرختُه . والصَّرِيخ صوت المستصرِخ . والصَّرِيخ أيضا الصارخ، وهو المغيث والمستغيث، وهو من الأضداد؛ قاله الجوهرى . وقراءة العامة « بِمُصْرِخِىَّ » بفتح الياء . وقرأ الأعمش وحمزة « بِمُصْرِخِىِّ » بكسر الياء . والأصل فيها بمصرخِيِين فذهبت النون للإضافة، وأدغمت ياء الجماعة فى ياء الإضافة، فمن نصب فلأجل التضعيف، ولأن ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها تعين فيها الفتح مثل : هَوَاىَ وعَصَاىَ، فإن تحرك ما قبلها جاز الفتح والإسكان، مثل : غلامِىَ وغلامِىْ؛ ومن كسر فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر، لأن اليـاء أخت الكسرة . وقال الفرّاء : قراءة حمزة وَهَمٌ منه، وقَلَّ من سلِم منهم[2] عن خطأ . وقال الزجاج : هذه قراءة رديئة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف . وقال قُطْرُب : هذه لغة بنى يَرْبُوع يزيدون على ياء الإضافة ياء . القُشَيْرىّ : والذى يغنى عن هـذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبى صـلى الله عليه وسـلم فلا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو قبيح أو ردىء، بل هو فى القرآن فصيح، وفيه ما هو أفصح منه، فلعل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذى قرأ به حمزة أفصح . ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ

(1) الظنابيب (جمع) ظنبوب ؛ وهو حرف الساق اليابس من قـدم . وقرع الظنبوب أن يقرع الرجل ظنبوب البعير ليتنوخ له فيركبه، والمراد هنا سرعة الإجابة .

(2) أى من القراء .

﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أى كفرت بإشراككم إياى مع الله تعالى فى الطاعة؛ فـ « ما » بمعنى المصدر . وقال ابن جُرَيج[1] : إنى كفرت اليوم بما كنتم تدعونه فى الدنيا من الشرك بالله تعالى . قتادة : أنى عصيتُ الله . الثورى : كفرت بطاعتكم إياى فى الدنيا . ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

وفى هـذه الآيات ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقهم؛ انظر إلى قول المتبوعين : « لَوْ هَـدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ » وقول إبليس : « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ » كيف اعترفوا بالحق فى صفات الله تعالى وهم فى دَرَكات النار؛ كما قال فى موضع آخر : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا » إلى قوله : « فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ » واعترافهم فى دَرَكات لَظَى بالحق ليس بنافع، وإنما ينفع الاعترافُ صاحبَه فى الدنيا؛ قال الله عز وجل : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » و « عسى » من الله واجبة .

قوله تعالى : وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ أى فى جنات لأن دخلت لا يتعدى، كما لا يتعدى نقيضه وهو خرجت، ولا يقاس عليه؛ قاله المهدوى . ولما أخبر تعالى بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة أيضا . وقراءة الجماعة « أُدْخِلَ » على أنه فعل مبنى للفعول . وقرأ الحسن « وأُدْخِلُ » على الاستقبال والاستئناف . ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أى بأمره . وقيل : بمشيئته وتيسيره . وقال : « بإذن ربهم » ولم يقل : بإذنى تعظيما وتفخيما . ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ تقدم فى « يونس »[2] . والحمد لله .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

(١) فى بعض النسخ ابن بحر . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣١٣ طبعة أولى أو ثانية .

فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ لما ذكر تعالى مَثَل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف، ذكر مَثَل أقوال المؤمنين وغيرها، ثم فسّر ذلك المَثل فقال : ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الثمر، فحذف لدلالة الكلام عليه. قال ابن عباس : الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن . وقال مجاهد وابن جُرَيْج : الكلمة الطيبة الإيمان . عطية العَوْفي والرّبيع بن أنس : هي المؤمن نفسه . وقال مجاهد أيضا وعِكْرِمة : الشّجرة النّخلة ؛ فيجوز أن يكون المعنى : أصل الكلمة في قلب المؤمن ــ وهو الإيمان ــ شبّهه بالنّخلة في المَنْبِت، وشبّه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النّخلة، وثواب الله له بالثّمر . وروى من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن مَثَل الإيمان كمثل شجرة ثابتةٍ الإيمانُ عُروقُها والصلاةُ أصلُها والزكاةُ فروعُها والصيامُ أغصانُها والتأذى في الله نباتُها وحسنُ الخُلُق ورقُها والكفّ عن محارم الله ثمرتُها" . ويجوز أن يكون المعنى : أصل النّخلة ثابت في الأرض ؛ أي عروقها تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها، فهي زاكية نامية . وخرّج الترمذيّ من حديث أنس بن مالك قال : أُتِي رسولُ الله صلى الله عليه بقِناعٍ(1) فيه رُطَب، فقال : "مَثَلُ كلمةٍ طيبةٍ كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابت وفرعها في السماءِ تؤتِي أكلها كل حِينٍ بإذنِ ربها ــ قال ــ هي النخلة ومثل كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثت من فوقِ الأَرض ما لها مِن قرارٍ ــ قال ــ هي الحَنْظَل" . وروى عن أنس قولَه [وقال](2) : وهو أصح . وخرّج الدّارَقُطْنيّ عن ابن عمر قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتدرون ما هي" فوقع في نفسي أنها النّخلة . قال السُّهَيْليّ : ولا يصح فيها ما روى عن عليّ بن أبي طالب أنها جَوْزة الهند؛ لما صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عمر "إنّ من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها وهي مِثْلُ المؤمن خبّروني ما هي ــ ثم قال ــ هي النخلة" خرّجه مالك في « الموطأ » من رواية ابن القاسم وغيره إلا يحيى فإنه أسقطه من روايته . وخرّجه أهل الصحيح وزاد

(1) القناع : الطبق الذي يؤكل عليه . (2) أي قال الترمذي : والحديث الموقوف أصح .

فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوى رحلة؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وهى النخلة لا تسقط لها أنملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة" فبين معنى الحديث والمماثلة .

قلت : وذكر الغزنوى عنه عليه السلام "مثل المؤمن كالنخلة إن صاحبته نفعك وإن جالسته نفعك وإن شاورته نفعك كالنخلة كل شيء منها ينتفع به". وقال: "كلوا من عمتكم" يعنى النخلة خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام، وكذلك أنها برأسها تبقى، وبقلبها تحيا؛ وثمرها بامتزاج الذكر والأنثى. وقد قيل: إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شبهت به؛ وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت الغصون من جوانبها، والنخلة إذا قطع رأسها يبست وذهبت أصلا؛ ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان فى الالتقاح لأنها لا تحمل حتى تلقح قال النبي صلى الله عليه وسلم: "خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة"(٢). والإبار اللقاح وسيأتى فى سورة «الحجر»(٣) بيانه. ولأنها من فضلة طينة آدم. ويقال: إن الله عز وجل لما صور آدم من الطين فضلت قطعة طين فصورها بيده وغرسها فى جنة عدن. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أكرموا عمتكم" قالوا: ومن عمتنا يارسول الله؟ قال: "النخلة". ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قال الربيع: «كل حين» غدوة وعشية كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخره؛ وقاله ابن عباس وعنه «تؤتى أكلها كل حين» قال: هو شجرة الهند لا تتعطل من ثمرة؛ تحمل فى كل شهر؛ شبه عمل المؤمن لله عز وجل فى كل وقت بالنخلة التى تؤتى أكلها فى أوقات مختلفة. وقال الضحاك: كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفا يؤكل فى جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير فى الأوقات كلها. قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة؛ لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره، وأنشد الأصمعي بيت النابغة:

تناذرها الراقون من سوء سمها ٭ تطلقه حينا وحينا تراجع(٤)

---

(١) كذا فى الأصل. (٢) السكة: الطريقة المصطفة من النخل؛ والمهرة المأمورة الكثيرة النسل والنتاج؛ أراد خير المال نتاج أو زرع. (٣) فى تفسير قوله تعالى: «وأرسلنا الرياح لواقح» آية ٢٢.

(٤) البيت فى وصف حية؛ و«تناذرها الراقون» أى أنذر بعضهم بعضا ألا يتعرضوا لها. ومعنى «تطلقه حينا وحينا تراجع» أنها تخف الأوجاع عن السليم تارة، وتارة تشتد عليه. والسليم: اللديغ. «من سوء سمها» أى أنها لا تجيب الراقى لأنها صماء؛ لقولهم: أصم من حية.

فهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت، فالإيمان ثابت فى قلب المؤمن، وعمله وقوله وتسبيحه عالٍ مرتفع فى السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما ينال من ثمرة النخلة فى أوقات السنة كلها، من الرطب والبسر والبلح والزهو[1] والتمر والطلع . وفى رواية عن ابن عباس: إن الشجرة الطيبة شجرة فى الجنة تثمر فى كل وقت . و «مثلا» مفعول بـ«ضرب»، «وكلمة» بدل منه، والكاف فى قوله : «كشجرة» فى موضع نصب على الحال من «كلمة» التقدير : كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ لما كانت الأشجار تؤتى أكلها كل سنة مرة كان فى ذلك بيان حكم الحين، ولهذا قلنا : من حلف ألّا يكلّم فلانا حينا ولا يقول كذا حينا إن الحين سنة . وقد ورد الحين فى موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقوله تعالى : «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ» قيل فى «التفسير» : أربعون عاما . وحكى عكرمة أن رجلا قال : إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حرٌّ، فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله، فسألنى عنها فقلت : إن من الحين حينا لا يُدرك، قوله : «وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» فأرى أن تُمسك ما بين صِرام النخلة[2] إلى حَمْلها، فكأنه أعجبه، وهو قول أبى حنيفة فى الحين أنه ستة أشهر اتباعا لعكرمة وغيره . وقد مضى ما للعلماء فى الحين فى «البقرة»[3] مستوفى والحمد لله . ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى الأشباه للناس . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ويعتبرون، وقد تقدم .

قوله تعالى : وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

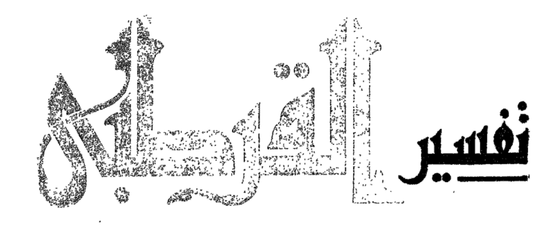
قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ الكلمة الخبيثة كلمة الكفر . وقيل : الكافر نفسه . والشجرة الخبيثة شجرة الحنظل كما فى حديث أنس، وهو قول ابن عباس ومجاهد

---

(1) الزهو : البسر الملون .
(2) صرام النخلة : حين يقطع ثمرها .
(3) راجع جـ ١ ص ٣٢٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

اذا كان « القرطبي » سيجلد في مجلد واحد فتنزع هذه الورقة

كتاب الشعب



الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

خيركم من تعلم القرآن وعلمه

حديث شريف

دار الشعب

٩٢ شارع قصر العيني القاهرة ت: ٣١٨١٠

اذا كان « القرطبي » سيجلد في مجلد واحد فتنزع هذه الورقة

وغيرهما، وعن ابن عباس أيضا أنها شجرة لم تخلق على الأرض . وقيل : هي شجرة الثوم؛ عن ابن عباس أيضا . وقيل : الكَمْأَة أو الطّحلبة . وقيل : الكَشُوث، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر :

* وهُمْ كَشُوثٌ فلا أصلٌ ولا ورقٌ[1] *

﴿ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ اقتلعت من أصلها؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول لَقِيط[2] :

هــو الجلاءُ الذي يَجتثُّ أصلكُمُ * فمن رأى مثلَ ذا يوماً ومن سَمِعَا

وقال المؤرّج : أُخذت جثّتها وهي نفسها ، والجثّـة شخص الإنسان قاعدا أو قائمـا . وجثّه قلعـه ، واجتثه اقتلعه من فوق الأرض ؛ أي ليس لهـا أصل راسخ يشرب بعروقه من الأرض . ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ أي من أصل في الأرض . وقيل : من ثبات؛ فكذلك الكافر لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه، وما يصعد له قول طيب ولا عمـل صالح . وروى معاوية ابن صالح عن عليّ بن أبي طلحة في قوله تعالى «وضرب الله مثلا كلمة طيبة» قال : لا إله إلا الله « كشجرة طيبـة » قال : المؤمن ؛ « أصلها ثابت » لا إله إلا الله ثابتـة في قلب المؤمن؛ « ومثل كلمة خبيثة » قال : الشرك، « كشجرة خبيثة » قال : المشرك؛ «اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار» أي ليس للمشرك أصل يعمل عليه . وقيل : يرجع المَثَل إلى الدعاء إلى الإيمان والدعاء إلى الشرك؛ لأن الكلمة يفهم منها القول والدعاء إلى الشيء .

قوله تعالى : يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ قال ابن عباس : هو لا إله إلا الله . وروى النّسائي عن البَرَاء قال قال : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت

(١) تمـامه :

* ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر *

يريد أنهم لا حسب لهم ولا نسب .

(٢) هو لقيط بن معمر الإيادي ، والبيت من قصيدة بعث بها إلى قومه يحذرهم كسرى وجيشه ؛ فلم يلتفتوا إلى قوله ، فظفر بهم كسرى وهزمهم .

فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » نزلت فى عذاب القبر؛ يقال : من ربك ؟ فيقول : ربّى الله وديني دين محمد ، فذلك قوله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

قلت : وقد جاء هكذا موقوفا فى بعض طرق مسلم عن البرّاء [أنه] قوله(١)، والصحيح فيه الرفع كما فى صحيح مسلم وكتاب النّسائى وأبى داود وابن ماجه وغيرهم عن البرّاء عن النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ وذكر البخارىّ، حدّثنا جعفر بن عمر، قال حدّثنا شُعْبة عن عَلْقمة بن مَرْثَد عن سعد بن عبيدة عن البرّاء بن عازب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أقعد المؤمنُ فى قبره أتاه آتٍ ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »" . وقد بينا هذا الباب فى كتاب « التذكرة » وبيّنا هناك من يُفتَن فى قبره ويُسأل، فمن أراد الوقوف عليه تأمله هناك . وقال سهل بن عمّار : رأيت يزيد بن هرون فى المنام بعد موته، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أتانى فى قبرى مَلَكان فظّان غليظان ، فقالا : ما دينك ومن ربك ومن نبيّك ؟ فأخذتُ بلحيتى البيضاء وقلتُ : ألمثلى يقال هذا وقد علّمتُ الناسَ جوابكما ثمانين سَنَة ؟! فذهبا وقالا : أكَتَبْتَ عن حَرِيز بن عثمان ؟ قلت نعم ! فقالا : إنه كان يبغض [عليّا](٢) فأبغضه الله . وقيل : معنى «يثبت الله» يديمهم الله على القول الثابت، ومنه قول عبد الله بن رَوَاحة :

يُثبِّتُ اللهُ ما آتاكَ مِن حَسَنٍ * تَثبِيتَ موسى ونَصرًا كالذى نُصِرَا

وقيل : يثبتهم فى الدارين جزاء لهم على القول الثابت . وقال القفّال وجماعة : « فى الحياة الدنيا » أى فى القبر؛ لأن الموتى فى الدنيا إلى أن يبعثوا « وفى الآخرة » أى عند الحساب؛ وحكاه الماوردىّ عن البرّاء قال : المراد بالحياة الدنيا المُسَاءلة فى القبر، وبالآخرة المُسَاءلة فى القيامة : ﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى عن حججهم فى قبورهم كما ضلّوا فى الدنيا

(١) أى قول البراء . (٢) فى الأصل « عثمان » ومثله فى كتاب « التذكرة » للمؤلف . والذى فى « تهذيب التهذيب » أنه كان يبغض عليا .

بكفرهم فلا يُلقّنهم كلمة الحق ، فإذا سُـئلوا فى قبورهم قالوا : لا ندرى ؛ فيقول : لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ[(١)] ؛ وعنـد ذلك يُضرَب بالمقامع[(٢)] على ما ثبت فى الأخبـار ؛ وقد ذكرنا ذلك فى كتاب « التـذكرة » . وقيـل : يمهلهم حتى يزدادوا ضلالا فى الدنيـا . ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ من عذاب قوم وإضـلال قوم . وقيـل : إن سبب نزول هـذه الآية ما روى عن النبي صلى الله عليـه وسلم لمـا وصف مُسَاءلة مُنكَرٍ ونَكِيرٍ وما يكون من جواب الميت قال عمر : يا رسـول الله أيكون معى عقلى ؟ قال : " نعم " قال : كُفيتُ إذًا ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ أى جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر فى تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا ، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم ؛ عن ابن عباس وعلىّ وغيرهما . وقيل : نزلت فى المشركين الذين قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر . قال أبو الطُّفَيل : سمعت عليا رضى الله عنه يقول : هم قريش الذين نُحِروا يوم بَدْر . وقيل : نزلت فى الأفجرين من قريش بنى مخزوم وبنى أمية ، فأما بنو أمية فمتِّعوا إلى حين ، وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بَدْر ؛ قاله علىّ بن أبى طالب وعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما . وقول رابع : أنهم متنصرة العرب جَبَلَة بن الأَيْهَـم وأصحابه حين لَطَم فجعل له عمر القصاص بمثلها ، فلم يَرْض وأَنِف فارتد مُتنصِّرا ولَحِق بالروم فى جماعة من قومه ؛ عن ابن عباس وقَتَادة . ولمـا صار إلى بلد الروم ندم فقال :

---

(١) قيل فى معنى « ولا تليت » : ولا تلوت ؛ أى لا قرأت ؛ من تلا يتلو ؛ وقالوا تليت بالياء ليعاقب بها الياء فى دريت . (٢) المقامع : سياط من حديد رءوسها معوجة .

تَنَصَّرتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمةٍ * وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ

تَكَنَّفَنِي منها لَجَاجٌ ونَخْوةٌ * وبِعتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ

فياليتنى أَرعَى المَخَاضَ ببلدةٍ * ولم أنكر القولَ الذى قاله عُمَرْ

وقال الحسن : إنها عامة فى جميع المشركين . ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ ﴾ أى أنزلوهم . قال ابن عباس : هم قادة المشركين يوم بَدْر أحلّوا قومهم ؛ أى الذين ٱتبعوهم . ﴿ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ قيل : جهنم ؛ قاله ابن زيد . وقيل : يوم بدر ؛ قاله علىّ بن أبى طالب ومجاهد . والبوار الهلاك ؛ ومنه قول الشاعر :

فلم أَرَ مثلَهم أبطالَ حَرْبٍ * غداةَ الحرب إذْ خِيفَ البَوَارُ

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ بيّن أن دار البوار جهنم كما قال ابن زيد ، وعلى هذا لا يجوز الوقف على «دار البوار» ؛ لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن « دار البوار» فلو رفعها رافع بإضمار ، على معنى : هى جهنم ، أو بما عاد من الضمير فى «يصلونها» لحسن الوقف على «دار البوار» . ﴿ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أى المستقر . قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أصناما عبدوها ؛ وقد تقدم فى « البقرة » [(١)] . ﴿ لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى عن دينه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء ، وكذلك فى الحج « لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » ومثله فى « لقمان » و « الزمر » وضمّها الباقون على معنى ليضلوا الناس عن سبيله ، وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يَضلّون عن سبيل الله على اللزوم ، أى عاقبتهم إلى الإضلال والضلال ؛ فهذه لام العاقبة . ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا ﴾ وعيد لهم ، وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا إذ هو منقطع . ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى مردّكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم .

قوله تعالى : قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٠ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ قُل لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى إن أهل مكة بدّلوا نعمة الله بالكفر، فقل لمن آمن وحقّق عبوديته أن ﴿ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ يعنى الصلوات الخمس، أى قل لهم أقيموا. والأمر معه شرط مقدّر، تقول : أطع الله يُدخلك الجنة؛ أى إن أطعته يدخلك الجنة؛ هذا قول الفراء . وقال الزجاج : « يقيموا » مجزوم بمعنى اللام ، أى ليقيموا فأسقطت اللام لأن الأمر دلّ على الغائب بـ « قل » . قال ويحتمل أن يقال : «يقيموا» جواب أمر محذوف؛ أى قل لهم أقيموا الصلاة يقيموا الصلاة . ﴿ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ يعنى الزكاة؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الجمهور : السرّ ما خفى والعلانية ما ظهر . وقال القاسم ابن يحيى : إن السرّ التطوع والعلانية الفرض، وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة[1] » مجوّدا عند قوله : « إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ » . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ تقدم فى « البقرة[2] » أيضا . و « خلال » جمع خُلّة كقُلّة وقِلال . قال[3] :

* فلستُ بمَقْلِيِّ الخِلَالِ ولا قالِي *

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى أبدعها واخترعها على غير مثال سبق . ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السحاب . ﴿ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ أى من الشجر

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٣٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) قاله امرؤ القيس، وصدر البيت :

* صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

ثمرات ﴿ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ تقدم معناه فى «البقرة»[1].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ يعنى البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا ، والبحار المالحة لاختلاف المنافع من الجهات . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ أى فى إصلاح ما يصلحان من النبات وغيره ، والدؤوب مرور الشىء فى العمل على عادة جارية . وقيل : دائبين فى السير امتثالا لأمر الله ، والمعنى يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران ؛ روى معناه عن ابن عباس . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى لتسكنوا فى الليل ، ولتبتغوا من فضله فى النهار ، كما قال : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أى أعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئا ؛ فحذف ؛ عن الأخفش . وقيل : المعنى وآتاكم من كل ما سألتموه ، ومن كل ما لم تسألوه ، فحذف ، فلم نسأله شمسا ولا قمرا ولا كثيرا من نعمه التى ٱبتدأنا بها . وهذا كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » على ما يأتى . وقيل : « من » زائدة ؛ أى آتاكم كلّ ما سألتموه . وقرأ ٱبن عباس والضحاك وغيرهما « وَآتَاكُمْ مِنْ كُلٍّ » بالتنوين « مَا سَأَلْتُمُوهُ » وقد رويت هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقتادة ؛ هى على النفى أى من كل ما لم تسألوه ؛ كالشمس والقمر وغيرهما . وقيل : من كل شىء ما سألتموه أى الذى سألتموه . ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ أى نعم الله لا تحصوها ولا تطيقوا عدها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها ، كالسمع والبصر وتقويم الصور إلى غير ذلك من العافية والرزق ؛ وهذه النعم من الله ، فلم تبدلون نعمة الله بالكفر ؟! وهلا ٱستعنتم بها على الطاعة ؟! ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ الإنسان لفظ جنس وأراد به الخصوص ؛ قال ابن عباس : أراد أبا جهل . وقيل : جميع الكفار .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِنًا ﴾ يعنى مكة وقد مضى فى « البقرة » [(١)] . ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ أى ٱجعلنى جانبا عن عبادتها ، وأراد بقوله : « بنىّ » بنيه من صُلْبه وكانوا ثمانية ، فما عبد أحد منهم صنما . وقيل : هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له . وقرأ الجَحْدَرىّ وعيسى « وَأَجْنِبْنِي » بقطع الألف والمعنى واحد ؛ يقال : جَنَبْتُ ذلك الأمر ، وأجنبته وجَنَّبْته إياه فتجانبه وٱجتنبه أى تركه . وكان إبراهيم التَّيْمىّ يقول فى قصصه : من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول : « وٱجنبنى و بنى أن نعبد الأصنام » كما عبدها أبى وقومى .

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ لما كانت سببا للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازا ؛ فإن الأصنام جمادات لا تفعل . ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي ﴾ فى التوحيد . ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أى من أهل دينى . ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ أى أصرّ على الشرك . ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قيل : قال هذا قبل أن يعرّفه الله أن الله لا يغفر أن يشرك به . وقيل : غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت . وقال مقاتل بن حيان : « وَمَنْ عَصَانِي » فيما دون الشرك .

قوله تعالى : رَبَّنَا إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — روى البخارىّ عن ابن عباس : أول ما ٱتخذ النساء المِنْطَق [(٢)] من قِبل أمّ إسمعيل ؛ ٱتخذت مِنْطَقا لتُعفِّى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم و بابنها إسمعيل وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس

---

(١) راجع ج ٢ ص ١١٧ وما بعدها طبعه ثانية .

(٢) المنطق : النطاق وهو أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشد وسطها بشىء ، وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها .

بهـا ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جِرابا فيـه تمر، وسقاء فيـه ماء، ثم قفّى إبراهيمُ منطلقا فتبعته أمّ إسمعيل، فقالت : يا إبرهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنس ولا شىء، قالت له ذلك مرارا وجعـل لا يلتفت إليها، فقالت له : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم . قالت إذًا لايُضيِّعنا، ثم رجعت، فآنطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنِية حيث لايرونه، آستقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهـذه الدعوات، ورفع يديه فقـال : «رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» حتى بلغ «يشكرون» وجعلت أمّ إسمعيل تُرضع إسمعيل وتشرب من ذلك المـاء، حتى إذا نَفِـدما فى السّقاء عطشت وعطِش آبنها، وجعلت تنظر إليـه يتلوّى — أو قال يتلبّط (١) — فآنطلقت كراهية أن تنظر إليـه، فوجدت الصَّفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم آستقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فهبطت من الصّفا، حتى إذا بلغت الوادى، رفعت طَرَف دِرْعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادى، ثم أتت المَرْوة فقامت عليـه، فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات؛ قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم: "فذلك سعى الناس بينهما" فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه ! تريد نفسها، ثم تَسمّعت فسمعت أيضا فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غَواث (٢)! فإذا هى بالمَلَك عند موضع زمزم فبَحَث بعَقبه — أو قال بجناحه — حتى ظهر المـاء، فجعلت تُحوِّضه (٣) وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من المـاء فى سِقائها وهو يفور بعـد ما تغرف؛ قال ابن عبـاس قال النبى صلى الله عليـه وسلم : " يرحم الله أمّ إسمعيـل لو تركت زمزم — أو قال لو لم تغـرف من المـاء — لكانت زمزم عينا مَعِينا " قال فشربت وأرضعت ولدها فقـال لها المَلَك : لا تخافى الضَّيْعة فإن هاهنا بيت الله يبنيه هـذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيِّع أهله؛ وذكر الحديث بطوله .

---

(١) يتلبط : يتمـرغ .

(٢) غواث (بالفتح) كالغياث (بالكسر) من الإغاثة وهى الإعانة؛ وقد روى بالضم والكسر .

(٣) «وتقول بيدها هكذا» : هو حكاية فعلها وهو من إطلاق القول على الفعل . (قسطلانى) .

مسئلة — لا يجوز لأحد أن يتعلق بهـذا فى طرح ولده وعياله بأرض مَضيعة آتكالا على العزيز الرحيم، وآقتداء بفعل إبراهيم الخليل، كما تقوله غُلاة الصّوفية فى حقيقة التّوكل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله فى الحديث : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . وقـد روى أن سارة لما غارت من هاجر بعـد أن ولدت إسمعيل خرج بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة، فروى أنه ركب البُراق هو وهاجر والطّفل فجـاء فى يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، وترك آبنه وأَمَته هنالك وركب منصرفا من يومه، فكان ذلك كله بوحى من الله تعالى، فلما ولى دعا يضمن هذه الآية .

الثانيـة — لما أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخطّ الموضع للبيت المكرم، والبلد المحرم، أرسل المَلَك فبَحَث عن المـاء، وأقامه مقام الغذاء، وفى الصحيح أن أبا ذر رضى الله عنه آجترأ به ثلاثين من يوم وليـلة، قال أبو ذر : ما كان لى طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تَكَسَّرت عُكَنى، وما أجد على كبـدى سَخْفَة جوع (١)، وذكر الحـديث . وروى الدّارَقُطْنى عن ابن عباس قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : "ماء زمزم لما شُرِب له إن شربتَه تشتفى به شفاك الله وإن شربته لشبعك أشبعك الله به وإن شربتَه لقطع ظمئك قطعه وهى هَزْمة جبريل (٢) وسُقْيا الله إسمعيل". وروى أيضا عن عكرمة قال كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال : اللهم إنى أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا، وشفاء من كل داء . قال ابن العربى : وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحّت نيّته، وسلمت طويّته، ولم يكن به مكذِّبا، ولا يشربه مجرِّبا، فإن الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجرِّبين . وقال أبو عبد الله محمد بن علىّ الترمذى وحدثنى أبى رحمه الله قال : دخلت الطّواف فى ليلة ظلماء فأخذنى من البول ما شغلنى، فجعلت أعتصر حتى آذانى، وخفت إن خرجت من المسجد أن أطأ بعض تلك الأقدام، وذلك أيام الحج، فذكرت هذا الحديث، فدخلت زمزم فتضلّعتُ (٣) منه، فذهب عنى إلى الصباح . وروى عن عبد الله بن عمرو : وإن فى زمزم عينا فى الجنة من قِبل الركن .

(١) سخفة الجوع : رقته وهزاله . (٢) هزمة جبريل : أى ضربها برجله فنبع الماء .
(٣) تضلع : أكثر من الشرب حتى تمدد جنبه وأضلاعه .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ « مِن » فى قوله تعالى : « من ذريتى » للتبعيض أى أسكنت بعض ذريتى ؛ يعنى إسمعيل وأمه ، لأن إسحق كان بالشام . وقيل : هى صلة؛ أى أسكنت ذريتى .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ يدل على أن البيت كان قديما على ما روى قبل الطُّوفان، وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة »(١) . وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرّم، أى يحرم فيه ما يستباح فى غيره من جماع واستحلال . وقيل : محرّم على الجبابرة، وأن تُنهتك حرمته، ويستخفّ بحقّه؛ قاله قَتَادة وغيره . وقد مضى القول فى هذا فى « المائدة »(٢) .

الخامسة ــ قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ خَصَّها من جملة الدِّين لفضلها فيه ، ومكانها منه ، وهى عهد الله عند العباد؛ قال صلى الله عليه وسلم : " خمسُ صلوات كتبهنّ الله على العباد " الحديث . واللام فى « ليقيموا الصلاة » لام كى؛ هذا هو الظاهر فيها وتكون متعلقة بـ « أسكنت » ويصح أن تكون لام أمر ، كأنه رَغِب إلى الله أن يوفقهم لإقامة الصلاة .

السادسة ــ تَضمَّنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ؛ لأن معنى « ربنا لِيقيموا الصلاة » أى أَسكنتُهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه . وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بمائة صلاة، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزّبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة " قال الإمام الحافظ أبو عمر : وأسند هذا الحديث حبيب المعلم عن عطاء بن أبى رَبَاح عن عبد الله

(١) راجع جـ ٢ ص ١٢٠ وما بعدها طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٢٥ طبعة أولى أو ثانية .

ابن الزبير وجوده ، ولم يخلط فى لفظه ولا فى معناه ، وكان ثقة . قال ابن أبى خيثمة سمعت يحيى بن معين يقول : حبيب المعلم ثقة . وذكر عبد الله بن أحمد قال سمعت أبى يقول : حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثه . وسئل أبو زرعة الرازى عن حبيب المعلم فقال : بصرى ثقة ، قلت — وقد خرج حديث حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبى رباح عن عبد الله بن الزبير عن النبى صلى الله عليه وسلم الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم التميمى البستى فى المسند الصحيح له ، فالحديث صحيح وهو الحجة عند التنازع والاختلاف . والحمد لله . قال أبو عمر : وقد روى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل حديث ابن الزبير، رواه موسى الجهنى عن نافع عن ابن عمر، وموسى الجهنى ثقة ، أثنى عليه القطان وأحمد ويحيى وجماعتهم، وروى عنه شعبة والثورى ويحيى بن سعيد . وروى حكيم بن سيف ، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم عن عطاء بن أبى رباح ، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيما سواه" وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرقة قد روى عنه أبو زرعة الرازى ، وأخذ عنه ابن وضاح ، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به . فإن كان حفظ فهما حديثان ، وإلا فالقول قول حبيب المعلم . وروى محمد بن وضاح ، حدثنا يوسف بن عدى عن عمر بن عبيد عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فى غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل" قال أبو عمر: وهذا كله نص فى موضع الخلاف قاطع له عند من ألهم رشده ، ولم تمل به عصبيته . وذكر ابن حبيب عن مطرف وعن أصبغ عن ابن وهب أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة فى المسجد الحرام على الصلاة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم على ما فى هذا الباب . وقد اتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يبرز لها فى كل بلد إلا مكة فإنها تصلى فى المسجد الحرام . وكان عمر وعلى وابن مسعود وأبو الدرداء وجابر يفضلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم ، وإلى هذا ذهب الشافعى ، وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين ، وروى مثله عن مالك ؛ ذكر ابن وهب فى جامعه عن مالك أن

آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض قال : يارَبّ هذه أحب إليك أن تَعبّد فيها ؟ قال : بل مكة . والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيل المدينة ، وآختلف أهل البصرة والبغداديون فى ذلك فطائفة تقول مكة ، وطائفة تقول المدينة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ ﴾ الأفئدة جمع فؤاد وهى القلوب . وقد يُعبَّر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر :

وإن فؤادًا قادنى بصَبَابةٍ * إليكِ على طولِ المَدَى لَصَبُورُ

وقيل: جمع وَفْد، والأصل أوفدة، فقدّمت الفاء وقلبت الواو ياء كما هى، فكأنه قال: واجعل وفودا من الناس تَهْوِى إليهم؛ أى تنزع؛ يقال : هَوِىَ نحوه إذا مال، وهوت الناقة تَهْوِى هُوِيًّا فهى هاوية إذا عَدَت عَدْوا شديدا كأنها فى هَوَاء بئر، وقوله : « تهوى إليهم » مأخوذ منه . قال ابن عباس ومجاهد: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال : «من الناس» فهم المسلمون؛ فقوله : «تهوى إليهم» أى تحنّ إليهم، وتحنّ إلى زيارة البيت. وقرأ مجاهد «تَهوَى إليهم» أى تهواهم وتجلّهم. ﴿ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ فاستجاب الله دعاءه، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار، و بما يجلب إليهم من الأمصار. وفى صحيح البخارى عن ابن عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه : ” جاء إبراهيم بعد ما تزوج إسمعيل يطالع تَرِكَته فلم يجد إسمعيل، فسأل آمرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا، ثم سألهم عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن فى ضيق وشدة؛ فشكت إليه، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغيّر عَتَبة بابه، فلما جاء إسمعيل كأنه آنس شيئا(1) فقال : هل جاءكم من أحد! قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنى عنك فأخبرته، وسألنى كيف عيشتنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة، قال : فهل أوصاك بشىء: قالت: أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول : غير عَتَبة بابك؛ قال: ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك آلحَق بأهلك، فطلّقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده ، ودخل على آمرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . قال :

(1) أى كأنه أبصر ورأى شيئا لم يعهده .

كيف أنتم ؟ وسالها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله . قال : ما طعامكم؟ قالت : اللحم . قال فما شرابكم؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ولم يكن لهم يومئذ حبّ ولو كان لهم دعا لهم فيه " قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه ؛ وذكر الحديث . وقال ابن عباس : قول إبراهيم «فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم» سأل أن يجعل الله الناس يهوون السُّكنى بمكة ، فيصير بيتا محرّما ، وكل ذلك كان والحمد لله . وأول من سكنه جُرْهُم . ففى البخارىّ — بعد قوله : وإن الله لا يُضيّع أهلَه — وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السّيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، وكذلك حتى مرّت بهم رُفقة من جُرْهُم قافلين من طريق كدا ، فنزلوا بأسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا(١) فقالوا : إن هذا الطائر لَيدُور على ماء ! لَعهدُنا بهذا الوادى وما فيه ماء ؛ فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّين(٢) فإذا هُم بالماء ، فأخبروهم بالماء فاقبلوا . قال : وأمّ إسمعيل عند الماء ؛ فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ولكن لا حقّ لكم فى الماء . قالوا : نعم . قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم : " [فألفى](٣) ذلك أمّ إسمعيل وهى تحب الأنس " فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، شَبَّ الغلامُ ، وماتت أم إسمعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسمعيل يطالع تَرِكته ، الحديث .

قوله تعالى : رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

---

(١) العائف هنا هو الذى يتردد على الماء ولا يمضى . (٢) الجرى : الرسول .

(٣) ألفى أى وجد ذلك الحى الجرهمى أم إسمعيل ، أو ألفى استئذان جرهم بالنزول أم إسمعيل والحال أنها تحب الأنس ؛ ففاعل ألفى (ذلك) و (ذلك) إشارة إلى الاستئذان .

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أى ليس يخفى عليك شىء من أحوالنا . وقال ابن عباس ومقاتل : تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسمعيل وأمه حيث أسكنا بواد غير ذى زرع . ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قيل : هو من قول إبراهيم . وقيل : هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم : « ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن » قال الله : «وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء» .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ أى على كبر سنى وسن آمرأتى ؛ قال ابن عباس : ولد له إسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحق وهو ابن مائة وآثنتى عشرة سنة . وقال سعيد بن جُبَير : بُشّر إبراهيم بإسحق بعد عشر ومائة سنة . ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ .

قوله تعالى : ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أى من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه . ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أى وآجعل من ذريتى من يقيمها . ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أى عبادتى كما قال : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » . وقال عليه السلام : "الدعاءُ مُخُّ العبادة" وقد تقدم في «البقرة» (1) . ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل : استغفر إبراهيمُ لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله قال القُشَيرى : "ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره فى آستغفاره لأبيه دون أمه ."

قلت : وعلى هذا قراءة سعيد بن جُبير « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدِي » يعنى أباه . وقيل : آستغفر لهما طمعا فى إيمانهما . وقيل : آستغفر لهما بشرط أن يُسلما . وقيل : أراد آدم وحوّاء . وقد رُوى أن العبد إذا قال : اللهم آغفر لى ولوالدى وكان أبواه قد ماتا كافرين آنصرفت المغفرة إلى آدم وحواء لأنهما والدا الخلق أجمع . وقيل : إنه أراد ولديه إسمعيل وإسحق . وكان إبراهيم النَّخَعى يقرأ «وَلِوَلَدَيَّ» يعنى آبنيه ، وكذلك قرأ يحيى بن يَعْمَر ؛ ذكره الماوَرْدى والنحاس . ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : «للمؤمنين» كلهم وهو أظهر . ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أى يوم يقوم الناس للحساب .

---

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٠٩ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أعجبه من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم ؛ أي آصبر كما صبر إبراهيم . وأَعْلِم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنّة الله إمهال العصاة مدة . قال ميمون بن مِهْران : هذا وعيد للظالم ، وتعزية للظلوم . ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ يعني مشركي مكة يمهلهم و يؤخر عذابهم . وقراءة العامة « يؤخرهم » بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ » . وقرأ الحسن والسُّلَمِيّ ورُوِى عن أبي عمرو أيضا « نؤخّرهم » بالنون للتعظيم . ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ أي لا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم ؛ قاله الفراء . يقال : شَخَص الرجلُ بصَرَه وشَخَص البصرُ نفسُه أي سَمَا وطَمَح من هول ما يَرى . قال ابن عباس : تَشْخَص أبصار الخلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحيرة فلا يَرْمَضُون . ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين ؛ قاله الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ؛ مأخوذ من أهطع يُهطع إهطاعا إذا أسرع . ومنه قوله تعالى : « مهطعين إلى الداع » أي مسرعين . قال الشاعر :

بدِجْلة دارُهمْ ولقد أراهُمْ * بدجْلةَ مُهطِعِينَ إلى السَّماع

وقيل : المهطع الذي ينظر في ذلّ وخشوع ؛ أي ناظرين من غير أن يَطْرِفوا ؛ قاله ابن عباس ، وقال مجاهد والضحاك : « مهطعين » أي مديمي النظر . وقال النحاس : والمعروف في اللغة أن يقال : أهطع إذا أسرع ؛ قال أبو عبيد : وقد يكون الوجهان جميعا يعني الإسراع مع أدامة النظر . وقال ابن زيد : المهطع الذي لا يرفع رأسه . ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ أي رافعي رءوسهم ينظرون في ذلّ . و إقناع الرأس رفعه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . قال ابن عرفة والقُتَبِيّ وغيرهما : المقنع الذي يرفع رأسه و يقبل ببصره على ما بين يديه ؛ ومنه الإقناع[1] في الصلاة

(١) الإقناع في الصلاة أن يرفع المصلي رأسه حتى يكون أعلى من ظهره .

وأقنع صوته إذا رفعه. وقال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد .
وقيل: ناكسي رءوسهم؛ قال المهدوي : ويقال أقنع إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلّة وخضوعا، والآية محتملة الوجهين، وقاله المبرّد، والقول الأول أعرف في اللغة؛ قال الراجز:

أَنْغَضَ(1) نَحْوِي رَأْسَـهُ وأَقْنَعَا * كأنَّما أَبْصَرَ شيئًا أَطْمَعَا

وقال الشّمّاخ يصف إبلا :

يُباكِرْنَ العِضاهَ(2) بمُقْنَعاتٍ * نَوَاجِذُهنَّ كالحَدَإِ الوَقِيعِ

يعني : برءوس مرفوعات إليها لتتناولهن . ومنه قيل : مِقْنَعة لارتفاعها . ومنه قَنِع الرجل إذا رَضِي؛ أي رفع رأسه عن السؤال . وقَنَع إذا سأل أي أتى ما يتقنّع منه؛ عن النحاس . وفم مُقْنَع أي معطوفة أسنانه إلى داخل . ورجل مُقَنَّع بالتشديد؛ أي عليه بَيْضة؛ قاله الجوهري . ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي شاخصة النظر . يقال : طَرَف الرجلُ يَطْرِف طَرْفا إذا أطبق جَفْنه على الآخر، فسمّي النظر طَرْفا لأنه به يكون . والطَّرْف العين . قال عَنْتَرة :

وأَغُضُّ طَرْفِي مابَدَتْ لِي جارتِي * حتَّى يُوارِي جارتِي مأْوَاهَا

وقال جَمِيل :

وأَقْصِرُ طَرْفِي دُونَ جُمْلٍ كَرَامةً * لجُمْلٍ ولِلطَّرْفِ الذي أنَا قاصِرُهْ

﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ أي لا تغني شيئا من شدّة الخوف . ابن عباس : خالية من كل خير . السُّدّي : خرجت قلوبهم من صدورهم فنشبت في حلوقهم؛ وقال مجاهد ومُرّة وابن زيد: خاوية خربة مُتخرِّقة ليس فيها خير ولا عقل؛ كقولك في البيت الذي ليس فيه شيء : إنما هو هواء؛ وقاله ابن عباس . والهواء في اللغة المجوَّف الخالي؛ ومنه قول حسان :

أَلَا أَبْلِغْ أبا سُفْيانَ عَنِّي * فأنتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ(3) هَوَاءُ

---

(1) أنغض رأسه : حركه . (2) العضاه : كل شجر يعظم وله شوك . والحدأ (بفتح الحاء) وقيل (بكسرها) جمع حدأة؛ وهي الفأس ذات الرأسين؛ والوقيع : المحدّد . شبه الشاعر أسنان الإبل بالفؤس في الحدة .

(3) المجوف والمجوّف : الجبان الذي لا قلب له . والنخب : من النخب بمعنى النزع . يقال : رجل نخب أي جبان؛ كأنه منتزع الفؤاد .

وقال زُهَير يصف ناقة صغيرة الرأس :

كأنّ الرّحْلَ منها فوقَ صَعْلٍ(١) ٭ من الظِّلْمانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءُ

فارغ أى خال؛ وفى التنزيل : « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا » أى من كل شىء إلا من همّ موسى . وقيل : فى الكلام إضمار، أى ذات هواء وخلاء .

قوله تعالى : وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ قال ابن عباس : أراد أهل مكة . ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو يوم القيامة ؛ أى خوّفهم ذلك اليوم . وإنما خصّهم بيوم العذاب وإن كان يوم الثواب لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصى . ﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى فى ذلك اليوم ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا ﴾ أى أمهلنا . ﴿ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق فى الآخرة . ﴿ نُجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ أى إلى الإسلام ﴿ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ . فيجابوا : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى فى دار الدنيا . ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ قال مجاهد : هو قَسَم قريش أنهم لا يبعثون . ابن جريج : هو ما حكاه عنهم فى قوله : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » . « مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيه تأويلان : أحدهما — ما لكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة ؛ أى لا تبعثون ولا تحشرون ؛ وهذا قول مجاهد . الثانى — « ما لكم من زوال » أى من العذاب . وذكر البيهقىّ عن محمد بن كعب القُرَظىّ قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله فى أربعة ، فإذا كان فى الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا ، يقولون : « رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » فيجيبهم الله « ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » .

(١) " فوق صعل " : شبه الناقة فى سرعتها بالظليم ، فكأن رحلها فوقه . والصعل : الصغير الرأس ، وبذلك يوصف الظليم .

ثم يقولون : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » فيجيبهم الله تعالى « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ » فيجيبهم الله تعالى « أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ» فيجيبهم الله تعالى : أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» . ويقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » فيجيبهم الله تعالى : «ٱخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ» فلا يتكلمون بعدها أبدا ؛ خرجه ابن المبارك فى « دقائقه » بأطول من هـذا — وقد كتبناه فى كتاب « التذكرة » — وزاد فى الحديث « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » قال هـذه الثالثة ، وذكر الحديث وزاد بعد قوله : «ٱخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ» فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء ، وأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم فى وجه بعض ، وأطبقت عليهم ؛ قال : فحدثنى الأزهر ابن أبى الأزهر أنه ذكر له أن ذلك قوله : «هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» .

قوله تعالى : وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أى فى بلاد ثمود ونحوها فهلا اعتبرتم بمساكنهم ، بعد ما تبين لكم ما فعلنا بهم ، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال فى القرآن . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ « وَنُبَيِّنْ لَكُمْ » بنون والجزم على أنه مستقبل ومعناه الماضى ، وليناسب قوله : « كيف فعلنا بهم » . وقراءة الجماعة « وَتَبَيَّنَ » وهى مثلها فى المعنى ؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله إياهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ أى بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة؛ عن ابن عباس وغيره . ﴿ وَعِنْدَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ « إن » بمعنى « ما » أى ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه؛ « وإن » بمعنى « ما » في القرآن في مواضع خمسة : أحدها هذا . الثانى — « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ » . الثالث — « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا » أى ما كنا . الرابع — « قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ » . الخامس — « وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ » . وقرأ الجماعة « وإن كان » بالنون . وقرأ عمرو بن علىّ وابن مسعود وأبىّ « وإن كاد » بالدال . والعامة على كسر اللام فى « لتزول » على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصبا . وقرأ ابن مُحَيصن وابن جُرَيج والكسائىّ « لَتَزُولُ » بفتح اللام الأولى على أنها لام الابتداء ورفع الثانية « وإن » مخففة من الثقيلة، ومعنى هذه القراءة استعظام مكرهم، أى ولقد عَظُم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه ؛ قال الطبرىّ : الاختيار القراءة الأولى ؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة؛ قال أبو بكر الأنبارىّ : ولا حجة على مصحف المسلمين فى الحديث الذى حدّثناه أحمدُ بن الحسين : حدّثنا عثمان بن أبى شيبة حدّثنا وكيع بن الجراح عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عبد الرحمن بن دانيل قال سمعت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : إن جبارا من الجبابرة قال لا أنتهى حتى أعلم من فى السموات، فعَمَد إلى فراخ نُسور، فأمر أن تطعم اللحم، حتى اشتدت وعَضَلت واستعلجت أمر بأن يُتخذ تابوتٌ يسع فيه رجلين، وأن يجعل فيه عصا فى رأسها لحم شديد حمرته، وأن يُستوثق من أرجل النسور بالأوتاد، وتُشدّ إلى قوائم التابوت، ثم جلس هو وصاحب له فى التابوت وأثار النسور، فلما رأت اللحم طلبته، فجعلت ترفع التابوت حتى بلغت به ما شاء الله؛ فقال الجبار لصاحبه : افتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : أرى الجبال كأنها ذباب، فقال : أغلق الباب؛ ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أن تصعد، فقال الجبار لصاحبه : افتح الباب فانظر ما ترى؟ فقال : ما أرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بُعدا، فقال : نكّس العصا فنكّسها، فانقضّت النسور . فلما وقع التابوت على الأرض سمعت له هدّة كادت الجبال تزول عن

مراتبها منها؛ قال : فسمعت عليًا رضى الله عنه يقرأ « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ » بفتح اللام الأولى من «لتزول» وضم الثانية . وقد ذكر الثعلبي هذا الخبر بمعناه[1]، وأن الجبّار هو النمرود الذى حاجّ إبراهيم فى ربّه، وقال عِكْرِمة : كان معه فى التابوت غلام أمرد، وقد حمل القوس والنبل فرمى بهما فعاد إليــه ملطخا بالدماء وقال : كُفيتُ نَفْسَكَ[2] إلهَ السّماء . قال عِكْرِمة : تَلَطّخ بدم سمكة من السماء، قذفت نفسها إليــه من بحر فى الهواء معلق . وقيــل : طائر من الطير أصابه السّهم ثم أمر نمرود صاحبيه أن يضرب العصا وأن يُنكّس اللحم، فهبطت النّسور بالتابوت، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنّسور ففزعت، وظنت أنه قد حدث بها حدث من السماء ، وأنّ الساعة قد قامت، فذلك قوله : « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » .
قال القُشَيْرى : وهذا جائز بتقدير خلق الحياة فى الجبال . وذكر المــاوردى عن ابن عباس : أن النّمرود بن كنعان بَنَى الصّرح فى قرية الرّس من سواد الكوفة، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعا ، وعرضــه ثلاثة آلاف ذراع وخمســة وعشرين ذراعا ، وصعد منــه مع النّسور، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتّخذه حصنا، وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه ، فأتى الله بنيانه من القواعد، فتداعى الصّرح عليهم فهلكوا جميعا ، فهــذا معنى « وَقَــدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ » وفى الجبــال التى عَنَى زوالهــا بمكرهم وجهان : أحدهما ــ جبال الأرض . الثانى ــ الإسلام والقرآن؛ لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال . وقال القُشَيْرى : « وَعِنْــدَ اللهِ مَكْرُهُمْ » أى هو عالم بذلك فيجازيهم، أو عند الله جزاء مكرهم فحذف المضاف . « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » بكسر اللام ؛ أى ما كان مكرهم مكرا يكون له أثر وخطر عنــد الله تعالى، فالجبال مَثَل لأمر النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وإن كان مكرهم » فى تقديرهم « لِتزول منه الجبال » وتؤثر فى إبطال الإســلام . وقرئ « لَتَزُولُ منه الجِبالُ » بفتح اللام الأولى وضم الثانية ؛ أى كان مكرا عظيما تزول منه الجبال، ولكن الله حفظ رسول الله صلى الله

(١) تعقب هذه القصة ابن عطية فى تفسيره بعد أن حكاها عن الطبرى بقوله : «وذلك عندى لا يصح عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وفى هذه القصة ضعف من طريق المعنى ، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف ، وبعيد أن يغرر أحد بنفسه فى مثل هذا » .

(٢) عبارة الثعلبي فى « قصص الأنبياء » : (كفيتُ شغلَ إلهِ السماء) .

عليه وسلم، وهو كقوله تعالى : « وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا » والجبال لا تزول ولكنّ العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون .

قوله تعالى : فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ اسم الله تعالى و « مخلف » مفعولا تحسب ؛ و « رُسُلَه » مفعول « وَعْدِه » وهو على الاتساع، والمعنى : مخلف وعده رسلَه ؛ قال الشاعر :

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأسَهُ * وسائرُهُ بادٍ إلى الشَّمْسِ أَجْمَعُ[1]

قال القُتَبيّ : هو من المقدّم الذي يوضحه التأخير، والمؤخّر الذي يوضحه التقديم، وسواء في قولك : مخلف وعده رسلَه، ومخلف رسلِه وعدَه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ أي من أعدائه ومن أسمائه المنتقم وقد بيّناه في « الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » .

قوله تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ أي اذكر يوم تبدل الأرض، فتكون متعلقة بما قبله . وقيل : هو صفة لقوله : « يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » . واختلف في كيفية تبديل

(١) يصف الشاعر هاجرة قد ألجأت الثيران إلى كنسها ، فترى الثور مدخلا لرأسه في ظل كناسه لما يجده من الحرارة، وسائره بارز للشمس .

الأرض ؛ فقال كثير من الناس : إن تبدّل الأرض عبارة عن تغير صفاتها ، وتسوية آكامها ، ونسف جبالها ، ومدّ أرضها ؛ ورواه ابن مسعود رضى الله عنه ؛ خرجه ابن ماجه فى سننه وذكره ابن المبارك من حديث شهر بن حَوْشَب ، قال حدّثنى ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة مُدّت الأرض مدّ الأديم وزيد فى سعتها كذا وكذا ؛ وذكر الحديث . وروى مرفوعا من حديث أبى هُريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تُبدّل الأرضُ غيرَ الأرض فيبسطها ويمدّها مدّ الأديم العُكاظىّ(١) لا ترى فيها عوجًا ولا أمْتًا ثم يزجر الله الخلق زجرةً فإذا هم فى الثانية فى مثل مواضعهم من الأولى [من كان فى بطنها ففى بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها] " ذكره الغَزْنَوِىّ(٢) . وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها ، وتناثر نجومها ؛ قاله ابن عباس . وقيل : اختلاف أحوالها ، فمرة كالمُهْل ومرة كالدّهان ؛ حكاه ابن الأنبارىّ ؛ وقد ذكرنا هذا الباب مبينا فى كتاب « التذكرة » وذكرنا ما للعلماء فى ذلك ، وأن الصحيح إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم . روى مسلم عن ثَوْبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك ؛ وذكر الحديث ، وفيه : فقال اليهودىّ أين يكون الناس يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فى الظُّلمة دون الجِسْر(٣) " وذكر الحديث . وخرج عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات » فأين يكون الناس يومئذ ؟ قال : " على الصراط " خرجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء ، وخرجه الترمذىّ عن عائشة وأنها هى السائلة ، قال : هذا حديث حسن صحيح ؛ فهذه الأحاديث تنصّ على أن السموات والأرض تُبدّل وتُزال ، ويخلق الله أرضا أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجِسْر . وفى صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أديم عكاظى : منسوب إلى عكاظ ، وهو مما حمل إليها فبيع بها . وعكاظ : اسم سوق من أسواق الجاهلية مشهورة كانت بقرب مكة . (٢) عبارة الأصل هنا ناقصة ومحرفة ، والزيادة والتصويب من تفسير الطبرى وكتاب « التذكرة » للمؤلف . (٣) الجسر : الصراط .

وسلم: «يُحشَر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاءَ عَفْرَاءَ كقُرْصَة النَّقِيّ[1] ليس فيها عَلَمٌ لأحد». وقال جابرٌ: سألت أبا جعفر محمد بن عليّ عن قول الله عز وجل: «يوم تبدل الأرض غير الأرض» قال: تبدّل خُبْزَةً يأكل منها الخلق يوم القيامة، ثم قرأ «وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ». وقال ابن مسعود: إنها تبدل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يُعمَل عليها خطيئة. وقال ابن عباس: بأرض من فضة بيضاء. وقال عليّ رضى الله عنه: تبدل الأرض يومئذ من فضة والسماء من ذهب وهذا تبديل العين، وحسبك. ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى من قبورهم، وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ وهم المشركون. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أى يوم القيامة. ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ اى مشدودين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ وهى الأغلال والقيود، واحدها صَفْد وصَفَد. ويقال: صَفَدته صَفْدا أى قيّدته والاسم الصَّفَد، فإذا أردت التكثير قلت: صَفَّدته تصفيدا؛ قال عمرو ابن كلثوم:

فآبُوا بالنِّهَاب وبالسَّبَايَا * وأُبْنَا بالمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا

اى مقيّدينا. وقال حسان:

مِنْ كلِّ مأسُورٍ يُشَدُّ صِفَادُهُ * صَقْرٍ إذا لاقَى الكَرِيهةَ حَامِ

أى غُلّه. وأصفدته إصفادا أعطيته. وقيل: صَفَدته وأَصْفَدته جاريان فى القيد والإعطاء جميعا؛ قال النابغة:

* فلم أعرِّض أَبَيْتَ اللَّعْنَ[2] بالصَّفَد *

فالصَّفَد العطاء لأنه يُقيِّد ويُعبِد؛ قال أبو الطيب:

وقيَّدتُ نفسى فى ذَرَاكَ[3] محبّةً * ومن وَجَدَ الإحسانَ قَيْدًا تقيَّدَا

---

(١) النقى: الدقيق الحوارى. والحوارىّ: ما حوّر أى بيض. والعلم الأثر.

(٢) معنى أبيت اللعن: أى أبيت أن تأتى شيئا تلعن عليه، وصدر البيت:

* هذا الثناء فإن تسمع لقائله *

(٣) الذرا (بالفتح): الدار ونواحيها، وكل ما استترت به؛ تقول: أنا فى ذرا فلان أى فى كنفه وستره.

قيل : يقرن كل كافر مع شيطان فى غَلّ ، بيانه قوله : «ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ» يعنى قرناءهم من الشياطين . وقيل : إنهم الكفار يجمعون فى الأصفاد كما اجتمعوا فى الدنيا على المعاصى . ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ ﴾ أى قمصهم ، عن ابن دُرَيد وغيره ، واحدها سربال ، والفعل تسربلتُ وسَربلتُ غيرى ؛ قال كعب بن مالك :

تَلْقَـاكُمُ عُصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ * مِنْ نَسْجِ دَاوِدَ فِى الْهَيْجَا سَرَابِيلُ

«مِن قَطِرَانٍ» يعنى قطران الإبل الذى تُهْنَأ به ؛ قاله الحسن . وذلك أبلغ لاشتعال النار فيهم . وفى الصحيح أن النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودِرْع من جَرَب . وروى عن حماد أنهم قالوا هو النُّحاس . وقرأ عيسى بن عمر: «قَطْرَانٍ» بفتح القاف وتسكين الطاء . وفيه قراءة ثالثة : كسر القاف وجزم الطاء ؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

جَوْنٌ كَأَنَّ الْعَـرَقَ الْمَنْتُوحَا(1) * لَبَّسَـهُ الْقِطْرَانَ وَالْمُسُـوحَا

وقراءة رابعة : « مِنْ قِطْرٍ آنٍ(2) » رويت عن ابن عباس وأبى هُريرة وعكرمة وسعيد بن جبير ويعقوب ؛ والقِطْر النحاس والصُّفْر المذاب ؛ ومنه قوله تعالى : «آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا» . والآن : الذى قد انتهى إلى حَرّه ؛ ومنه قوله تعالى : « وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » . ﴿ وَتَغْشَى ﴾ أى تضرب ﴿ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ فتغشيها . ﴿ لِيَجْزِىَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴾ أى بما كسبت . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ أى هذا الذى أنزلنا إليك بلاغ ؛ أى تبليغ وعظة . ﴿ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ﴾ أى ليخوّفوا عقاب الله عز وجل . وقرئ . «وَلِيَنْذَرُوا» بفتح الياء والذال ، يقال : نَذِرت بالشيء أَنْذَر إذا علمت به فاستعددتَ له ، ولم يستعملوا منه مصدرا كما لم يستعملوا من عسى وليس ، وكأنهم استغنوا بأن والفعل كقولك : سَرّنى أن نَذِرتُ بالشيء . ﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أى وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين . ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو

---

(1) نتح العرق خرج من الجلد . (2) «قطر» : ضبطه فى «روح المعانى» بفتح القاف وكسر الطاء وتنوين الراء ، ومثله فى «البحر المحيط» ، وضبط بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء ، ففيه ثلاث لغات .

الْأَلْبَـاب ﴾ أى وليتّعظ أصحاب العقول . وهـذه اللامات فى و « لينذروا » و « ليعلموا » و « ليذكر » متعلقة بمحذوف ؛ التقدير : ولذلك أنزلناه . وروى يمان بن رئاب أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وسئل بعضهم هل لكتاب الله عنوان ؟ فقال : نعم ؛ قيل : وأين هو ؟ قال قوله تعالى : « هـذا بلاغ للناس ولينذروا به » إلى آخرها . تم تفسير سورة إبراهيم عليه السلام والحمد لله .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحجر

قوله تعالى : ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ ﴾

تقدم معناه[1] . و « الكتاب » قيل فيه : إنه اسم لجنس الكتب المتقدمة من التوراة والإنجيل، ثم قرنهما بالكتاب المبين . وقيل : الكتاب هو القرآن، جمع له بين الاسمين .

قوله تعالى : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ﴾

« رُبّ » لا تدخل على الفعل، فإذا لحقتها « ما » هيأتها للدخول على الفعل تقول : ربما قام زيد، وربما يقوم زيد . ويجوز أن تكون « ما » نكرة بمعنى شيء، و « يودّ » صفة له ؛ أى رب شيء يودّ الكافر . وقرأ نافع وعاصم « ربما » مخفف الباء . الباقون مشدّدة، وهما لغتان . قال أبو حاتم : أهل الحجاز يخففون ربما، قال الشاعر :

رُبَما ضربةٍ بسيفٍ صقيلٍ * بين بُصْرَى وطعنةٍ نجلاء[2]

وتميم وقيس وربيعة يثقلونها . وحكى فيها : رَبّما ورَبَما، ورُبّتما ورُبَتَما، بتخفيف الباء وتشديدها أيضاً[3] . وأصلها أن تستعمل فى القليل وقد تستعمل فى الكثير؛ أى يودّ الكفار فى أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين؛ قاله الكوفيون . ومنه قول الشاعر :

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٠٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) البيت لعدى بن الرعلاء الغسانى . وبصرى : بلدة قرب الشام، هى كرسى حوران ، كان يقوم فيها سوق بجاهلية . قال صاحب خزانة الأدب : « ... وإنما صح اضافة بين إلى بصرى لاشتمالها على متعدّد من الأمكنة ؛ أى بين أماكن بصرى ونواحيها . وروى الشريف الحسينى فى حماسته : « دون بصرى » ودون هنا بمعنى قبل أو بمعنى خلف . وقال العينى : بمعنى عند » . راجع الخزانة فى الشاهد التاسع والتسعين بعد السبعمائة . (٣) قال ابن هشام فى المغنى : « وفى رب ست عشرة لغة : ضم الراء وفتحها ، وكلاهما مع التشديد والتخفيف . والأوجه الأربعة مع تاء التأنيث ، ساكنة أو محركة ، ومع التجرد منها ؛ فهذه اثنتا عشرة . والضمّ والفتح مع إسكان الباء وضم الحرفين مع التشديد ومع التخفيف » .

ألا رُبّما أهدت لك العين نظرةً * قُصاراك منها أنها عنك لا تُجدى (١)

وقال بعضهم : هى للتقليل فى هذا الموضع ؛ لأنهم قالوا ذلك فى بعض المواضع لا فى كلها؛ لشَغْلهم بالعذاب، والله أعلم . وقال : « رُبَمَا يَوَدُّ » وهى إنما تكون لما وقع؛ لأنه لصدق الوعد كأنه عِيان قد كان . وخرّج الطبرانى أبو القاسم من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن ناسا من أمتى يدخلون النار بذنوبهم فيكونون فى النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يعيّرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم تخالفونا فيه من تصديقكم وإيمانكم نفعكم فلا يبقى موحّد إلا أخرجه الله من النار ـ ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ رُبَمَا يَوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين " . قال الحسن : إذا رأى المشركون المسلمين وقد دخلوا الجنة ومأواهم فى النار تمنّوا أنهم كانوا مسلمين . وقال الضحاك : هذا التمنى إنما هو عند المعاينة فى الدنيا حين تبيّن لهم الهدى من الضلالة . وقيل : فى القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذل الكافرين .

قوله تعالى : ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

فيه مسألتان .

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ تهديد لهم . ﴿ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ﴾ أى يشغلهم عن الطاعة . يقال : ألهاه عن كذا أى شغله . ولَهِىَ هو عن الشىء يَلْهَى . ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا . وهذه الآية منسوخة بالسيف .

الثانية ـ فى مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أربعةٌ من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا " . وطولُ الأمل داء

(١) أى لا تغنى؛ يقال : ما يجدى عنك هذا ؛ أى ما يغنى . وفى بعض نسخ الأصل : لا تجزى ؛ بالزاى ؛ وهى بمعنى لا تغنى . ولم نوفق لمعرفة قافية البيت .

عضال ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتدّ علاجه، ولم يفارقه داء ولا نجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من برئه الحكماء والعلماء. وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحبُّ لها والإعراض عن الآخرة. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل". ويروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال: يأهل دمشق، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح، إنّ مَن كان قبلكم كانوا يجمعون كثيرا ويبنون مشيّدا ويأملون بعيدا، فأصبح جمعهم بُورا وبنيانهم قبورا وأملهم غرورا. هذه عاد قد ملأت البلاد أهلا ومالا وخيلا ورجالا، فمن يشترى منى اليوم تركتهم بدرهمين! وأنشد:

يا ذا المؤمل آمالا وإن بعدت * منه ويزعم أن يحظى بأقصاها

أنَّى تفوز بما ترجوه وَيْكَ وما * أصبحت فى ثقة من نَيْل أدناها

وقال الحسن: ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل. وصدق رضى الله عنه! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخى والتوانى، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى. وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطلَب صاحبه ببرهان؛ كما أن قِصر الأمل يبعث على العمل، ويُحيل على المبادرة، ويحثّ على المسابقة

قوله تعالى: وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾

أى أجل مؤقت كتب لهم فى اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

«من» صلة؛ كقولك: ما جاءنى من أحد. أى لا تتجاوز أجلها فتزيد عليه، ولا تتقدّم قبله. ونظيره قوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»[1].

(١) آية ٣٤ سورة الأعراف.

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) ﴾

قاله كفار قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم على جهة الاستهزاء ، ثم طلبوا منه إتيان الملائكة دلالة على صدقه . و﴿ لَوْ مَا ﴾ تحضيض على الفعل كلولا وهلا . وقال الفراء : الميم فى « لوما » بدل من اللام فى لولا . ومثله استولى على الشىء واستومى عليه ، ومثله خالمته وخاللته ، فهو خِلّى وخِلْمى ؛ أى صديق . وعلى هذا يجوز « لوما » بمعنى الخبر ، تقول : لوما زيد لضرب عمرو . قال الكسائى : لولا ولوما سواء فى الخبر والاستفهام . قال ابن مُقْبِل :

لَوْمَا الحياءُ ولوما الدِّين عبتكما ... ببعض ما فيكما إذ عبتما عَوَرِى

يريد لولا الحياء . وحكى النحاس لوما ولولا وهلا واحد . وأنشد أهل اللغة على ذلك :

تعدّون عَقْرَ النِّيب أفضلَ مَجْدِكم ... بنى ضَوْطَرَى لولا الكَمِىَّ المُقَنَّعا [1]

أى هلا تعدون الكمِىّ المقنعا .

قوله تعالى : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (٨) ﴾

قرأ حفص وحمزة والكسائى ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكةَ إلا بِالحق ﴾ واختاره أبو عبيد . وقرأ أبو بكر والمفضل « ما تُنَزَّلُ الملائكةُ » . الباقون « ما تَنَزَّلُ الملائكةُ » وتقديره : ما تتنزل بتاءين حذفت إحداهما تخفيفا ، وقد شدد التاء البَزِّى ، واختاره أبو حاتم اعتبارا بقوله : « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ والرُّوحُ » [2] . ومعنى ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ إلا بالقرآن . وقيل بالرسالة ؛ عن مجاهد . وقال الحسن : إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا . ﴿ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ ﴾ أى لو تنزلت الملائكة بإهلاكهم لما أمهلوا ولا قبلت لهم توبة . وقيل : المعنى لو تنزلت الملائكة تشهد لك فكفروا

---

(١) البيت لجرير يهجو الفرزدق . والعقر : ضرب قوائم الناقة بالسيف . والنيب (بكسر النون) : جمع ناب ، وهى الناقة المسنة . وضوطرى : هو الرجل الضخم اللئيم الذى لا غناء عنده ؛ وهى كلمة ذم وسب . والكمى : الشجاع المتكمى فى سلاحه ؛ لأنه كمى نفسه أى سترها بالدرع والبيضة . والمقنع : الذى على رأسه البيضة والمغفر .

(٢) آية ٤ سورة القدر .

بعد ذلك لم ينظَرُوا . وأصل « إِذًا » إذ أن — ومعناه حينئذ — فضم إليها أن، واستثقلوا الهمزة فحذفوها .

قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يزاد فيه أو ينقص منه . قال قتادة وثابت البُنانيّ : حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلا أوتنقُص منه حقا؛ فتولّى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظا، وقال فى غيره : « بما ٱسْتُحْفِظُوا »(1) ، فوكّل حفظه إليهم فبدّلوا وغيروا . أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبى الحسن على بن خلف بن معزوز الكومى التِّلِمْسانى قال : قرئ على الشيخة العالمة فخر النساء شُهْدة بنت أبى نصر أحمد بن الفرج الدِّينَوَرِيّ وذلك بمنزلها بدار السلام فى آخر جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وخمسمائة ، قيل لها : أخبركم الشيخ الأجل العامل نقيب النقباء أبو الفوارس طِراد بن محمد الزَّيْنبي قراءة عليه وأنت تسمعين سنة تسعين وأربعمائة، أخبرنا علىّ بن عبد الله بن إبراهيم حدّثنا أبو على عيسى بن محمد بن أحمد آبن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز آبن جريج المعروف بالطُّومَارِيّ حدّثنا الحسين بن فهم قال : سمعت يحيى بن أكثم يقول : كان للمأمون — وهو أمير إذ ذاك — مجلس نظر ، فدخل فى جملة الناس رجل يهودى حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، قال : فتكلم فأحسن الكلام والعبارة ، قال : فلما تقوّض المجلس دعاه المأمون فقال له : إسرائيلى ؟ قال نعم . قال له : أسلِم حتى أفعلَ بك وأصنع ، ووعده . فقال : دينى ودين آبائى ! وانصرف . قال : فلما كان بعد سنة جاءنا مُسْلِما ، قال : فتكلّم على الفقه فأحسن الكلام ؛ فلما تقوّض المجلس دعاه المأمون وقال : ألستَ صاحبنا بالأمس ؟ قال له : بلى . قال : فما كان سبب إسلامك ؟ قال : انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت ترانى حسن الخط ،

---

(1) فى قوله تعالى : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور... » آية ٤٤ سورة المائدة، وراجع جـ ٦ ص ١٨٨ طبعة أولى أو ثانية .

فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الكنيسة فاشتريت مني ، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها البيعة فاشتريت مني ، وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها ، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ؛ فعلمت أن هذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سبب إسلامي . قال يحيى بن أكثم : فحججت تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له الخبر فقال لي : مصداق هذا في كتاب الله عز وجل . قال قلت : في أي موضع ؟ قال : في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل : « بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ »[1] ، فجعل حفظه إليهم فضاع ، وقال عز وجل : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع . وقيل : « وإنا له لحافظون » أي لمحمد صلى الله عليه وسلم من أن يتقول علينا أو نتقول عليه . أو « وإنا له لحافظون » من أن يكاد أو يقتل . نظيره « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »[2] . و « نحن » يجوز أن يكون موضعه رفعا بالابتداء و « نزلنا » الخبر . والجملة خبر « إن » . ويجوز أن يكون « نحن » تأكيدا لاسم « إن » في موضع نصب ، ولا تكون فاصلة لأن الذي بعدها ليس بمعرفة وإنما هو جملة ، والجمل تكون نعوتا للنكرات فحكمها حكم النكرات .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10)

المعنى : ولقد أرسلنا من قبلك رسلا ، فحذف . والشيع جمع شيعة وهي الأمة ، أي في أممهم ؛ قاله ابن عباس وقتادة . الحسن : في فرقهم . والشيعة : الفرقة والطائفة من الناس المتآلفة المتفقة الكلمة . فكأن الشيع الفرق ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا »[3] . وأصله مأخوذ من الشياع وهو الحطب الصغار يوقد به الكبار — كما تقدم في « الأنعام » . وقال الكلبي : إن الشيع هنا القرى .

---

(1) آية ٤٤ سورة المائدة . (2) آية ٦٧ سورة المائدة . (3) راجع جـ ٧ ص ٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾

تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك فُعِل بمن قبلك من الرسل .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ أى الضلال والكفر والاستهزاء والشرك . ﴿ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ من قومك ؛ عن الحسن وقتادة وغيرهما . أى كما سلكناه فى قلوب من تقدم من شِيَع الأولين كذلك نسلكه فى قلوب مشركى قومك حتى لا يؤمنوا بك، كما لم يؤمن مَن قبلهم برسلهم . وروى ابن جُريج عن مجاهد قال : نسلك التكذيب . والسَّلْك : إدخال الشىء فى الشىء كادخال الخيط فى المِخْيَط . يقال : سَلَكه يَسْلُكه سَلْكًا وسُلوكا، وأسلكه إسلاكا . وسَلَك الطريق سُلوكا وسَلْكا وأسلكه دخله، والشىءُ فى غيره مثله ، والشىءَ كذلك والرُّمْحَ، والخيط فى الجوهر ؛ كلُّه فَعَل وأفعل . وقال عَدِىّ بن زيد :

* وقد سلكوك فى يوم عَصِيب (١) *

والسِّلك (بالكسر) الخيط . وفى الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة . وقيل : المعنى نسلك القرآن فى قلوبهم فيكذبون به . وقال الحسن ومجاهد وقتادة القولَ الذى عليه (٢) أكثر أهل التفسير، وهو ألزم حجة على المعتزلة . وعن الحسن أيضا : نسلك الذكر إلزاما للحجة ؛ ذكره الغَزْنَوِىّ . ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أى مضت سنة الله بإهلاك الكفار ، فما أقرب هؤلاء من الهلاك . وقيل : « خلت سنة الأولين » بمثل ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر، فهم يقتدون بأولئك .

---

(١) هذا عجز البيت، وصدره كما فى اللسان وشعراء النصرانية :

* وكنتُ لزازَ خصمك لم أُعرِّد *

(٢) فى الأصول ، «وقرأ» .

قوله تعالى : وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

يقال : ظَلّ يفعل كذا ، أي يفعله بالنهار . والمصدر الظُّلول . أي لو أجيبوا إلى ما اقترحوا من الآيات لأصروا على الكفر وتعلّلوا بالخيالات ؛ كما قالوا للقرآن المعجز : إنه سحر . ﴿يَعْرُجُونَ﴾ من عَرَج يَعْرُج أي صعِد . والمعارج المصاعد . أي لو صعِدوا إلى السماء وشاهدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر ؛ عن الحسن وغيره . وقيل : الضمير في «عليهم» للشركين . وفي «فظَلّوا» للملائكة ، تذهب وتجيء . أي لو كشف لهؤلاء حتى يعاينوا أبوابا في السماء تصعّد فيها الملائكة وتنزل لقالوا : رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة له ؛ عن ابن عباس وقتادة . ومعنى ﴿سُكِّرَتْ﴾ سُدّت بالسحر ؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال الحسن : سُحِرت . الكلبي : أغشيت أبصارنا ؛ وعنه أيضا عَميت . قتادة : أخذت . وقال المُؤَرِّج : دِيرَ بنا من الدوران ؛ أي صارت أبصارنا سكرى . جُوَيْبِر : خُدعت . وقال أبو عمرو ابن العلاء : « سكرت » غُشّيت وغُطّيت . ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمس عليها مغفر * وجعلت عين الحرور تُسْكَرُ

وقال مجاهد : « سكرت » حبست . ومنه قول أوس بن حَجَر :

فصرت على ليلة ساهرهْ (1) * فليست بطَلْقٍ ولا ساكِرَهْ

قلت : وهذه أقوال متقاربة يجمعها قولك : مُنِعت . قال ابن عزيز : «سُكِّرت أبصارنا» سُدّت أبصارنا ؛ هو من قولك : سَكَرت النهرَ إذا سددته . ويقال : هو من سُكْر الشراب ؛ كأن العين يلحقها ما يلحق الشارب إذا سكِر . وقرأ ابن كثير «سُكِرت» بالتخفيف . والباقون بالتشديد . قال ابن الأعرابي : سُكِرت ملئت (2) . قال المهدوي : والتخفيف والتشديد

---

(1) في اللسان مادة سكر : «جذلت» بالجيم والذال المفتوحتين ، ومعنى «جذل» انتصب وثبت لا يبرح . وليلة طلق : مشرق لا برد فيها ولا حرّ ، ولا مطر ولا قرّ . (2) عبارة ابن الأعرابي كما في نسخ الأصل « سكرت ملئت ، وسكرت ملكت » ولم نر ما يؤيد هذا ، ولعله تكرير من النساخ مع تحريف .

فى «سكرت» ظاهران، التشديد للتكثير والتخفيف يؤدّى عن معناه . والمعروف أن «سكر» لايتعدى . قال أبو على : يجوز أن يكون سُمع متعديا فى البصر . ومن قرأ «سَكِرت» فإنه شبه ماعرض لأبصارهم بحال السكران، كأنها جرت مجرى السكران لعدم تحصيله . وقد قيل : إنه بالتخفيف [من] سكر الشراب، وبالتشديد أُخذت، ذكرهما الماوردى . وقال النحاس : والمعروف من قراءة مجاهد والحسن «سُكِرت» بالتخفيف . قال الحسن : أى سُحِرت . وحكى أبو عبيد عن أبى عبيدة أنه يقال : سُكِّرت أبصارهم إذا غَشِيها سَمادِير[1] حتى لا يبصروا . وقال الفراء : من قرأ «سَكَرت» أخذه من سكور الريح . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة . والأصل فيها ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله تعالى، قال : هو من السكر فى الشراب . وهذا قول حسن؛ أى غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشى السكرانَ ماغطى عقله . وسكور الريح سكونها وفتورها؛ فهو يرجع إلى معنى التحيير .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ (١٦)

لما ذكر كفر الكافرين وعجز أصنامهم ذكر كمال قدرته ليُستدلّ بها على وحدانيته . والبروج : القصور والمنازل . قال ابن عباس : أى جعلنا فى السماء بروج الشمس والقمر؛ أى منازلها . وأسماء هذه البروج : الحَمَل، والثَّور، والجَوْزاء، والسَّرطان، والأَسد، والسُّنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْى، والدّلو، والحوت . والعرب تَعُدّ المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم، ويستدلّون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب . وقالوا : الفَلَك اثنا عشر برجا، كلّ برج مِيلان ونصف . وأصل البروج الظهور؛ ومنه تبرّج المرأة بإظهار زينتها . وقد تقدّم هذا المعنى فى النساء[2] . وقال الحسن وقتادة : البروج النجوم، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها . وقيل : الكواكب العظام؛ قاله أبو صالح،

---

(١) السمادير : ضعف البصر . وقيل : هو الشىء الذى يتراءى للانسان من ضعف بصره عند السكر من الشراب .

(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٨٤ طبعة أولى أو ثانية .

يعنى السبعة السيارة[1]. وقال قوم: «بروجا»؛ أى قصورا وبيوتا فيها الحرس، خلقها الله فى السماء. فالله أعلم. ﴿وزيناها﴾ يعنى السماء؛ كما قال فى سورة المُلْك: «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح»[2]. ﴿للنّاظرين﴾ للعتبرين والمتفكرين.

قوله تعالى: وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾

أى مرجوم. والرجم الرمى بالحجارة. وقيل: الرجم اللعن والطرد. وقد تقدّم[3]. وقال الكسائى: كل رجيم فى القرآن فهو بمعنى الشتم. وزعم الكلبى أن السموات كلها لم تحفظ من الشياطين إلى زمن عيسى، فلما بعث الله تعالى عيسى حفظ منها ثلاث سموات إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحفظ جميعها بعد بعثه وحُرست منهم بالشُّهُب. وقاله ابن عباس رضى الله عنه. قال ابن عباس: وقد كانت الشياطين لايحجبون عن السماء، فكانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة، فيزيدون عليها تسعا فيحدّثون بها أهل الأرض؛ الكلمة حق والتسع باطل؛ فاذا رأوا شيئا مما قالوه صدّقوهم فيما جاءوا به، فلما ولد عيسى بن مريم عليهما السلام منعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمِىَ بشهاب؛ على ما يأتى[4].

قوله تعالى: إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

أى لكن من استرق السمع، أى الخطفة اليسيرة، فهو استثناء منقطع. وقيل، هو متصل، أى إلا ممن استرق السمع. أى حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحى وغيره؛ إلا من استرق السمع فانا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحى، فأما الوحى فلا تسمع منه شيئا؛ لقوله: «إنهم عن السَّمْع لمعزولون»[5]. وإذا استمع الشياطين

(١) وهى — حسب ترتيبها التصاعدى —: القمر، عطارد، الزهرة، الشمس، المريخ، المشترى، زحل.
(٢) آية ٥. (٣) راجع ج ٩ ص ٩١ طبعة أولى أو ثانية. (٤) فى سورة الصافات فى قوله تعالى: «إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ...» آية ٦ وما بعدها. وفى سورة الجن فى قوله تعالى: «وأنا لمسنا السماء ...» آية ٨ وما بعدها. (٥) آية ٢١٢ سورة الشعراء.

إلى شئ ليس بوحى فإنهم يقذفونه إلى الكهنة فى أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم[(١)]؛ ذكره الحسن وابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ أتبعه : أدركه ولحقه. شهاب : كوكب مضىء، وكذلك شهاب ثاقب . وقوله : «بِشِهَابٍ قَبَسٍ»[(٢)] بشعلة نار فى رأس عود؛ قاله ابن عزيز . وقال ذو الرمة :

كأنه كوكب فى إثر عِفْرِيَة[(٣)] * مسوَّمٌ فى سواد الليل مُنْقَضِب

وسمى الكوكب شهابا لبريقه ، يشبه النار . وقيل : شهاب لشعلة من نار، قبس لأهل الأرض، فتحرقهم ولا تعود إذا أحرقت كما إذا أحرقت النار لم تعد ، بخلاف الكوكب فإنه إذا أحرق عاد إلى مكانه . قال ابن عباس : تصعد الشياطين أفواجا تسترق السمع فينفرد المارد منها فيعلو، فَيُرْمَى بالشهاب فيصيب جبهته أو أنفه أو ماشاء الله فيلتهب، فيأتى أصحابه وهو يلتهب فيقول : إنه كان من الأمر كذا وكذا ، فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليها تسعا ، فيحدّثون بها أهل الأرض؛ الكلمة حق والتسع باطل . فاذا رأوا شيئا مما قالوا قد كان صدقوهم بكل ماجاءوا به من كذبهم . وسيأتى هذا المعنى مرفوعا فى سورة « سبأ »[(٤)] إن شاء الله تعالى .

واختلف فى الشهاب هل يقتل أم لا . فقال ابن عباس : الشهاب يجرح ويُحرق ويخبل ولا يقتل . وقال الحسن وطائفة : يَقتل؛ فعلى هذا القول فى قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان : أحدهما — أنهم يُقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم؛ فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكهانة . والثانى — أنهم يُقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن؛ ولذلك ما يعودون إلى استراقه، ولو لم يصل لانقطع الاستراق وانقطع الإحراق؛ ذكره الماوردى .

---

(١) الخبل (بسكون الباء) : فساد الأعضاء . (٢) آية ٧ سورة النمل . (٣) أى إثر شيطان؛ ومسوّم : معلم ومنقضب : منقض من مكانه . (٤) فى قوله تعالى : «ولا تنفع الشفاعة عنده» آية ٢٦ .

قلت : والقول الأول أصح على ما يأتى بيانه فى «الصافات»(١) . واختلف هل كان رمىٌ بالشهب قبل المبعث؛ فقال الأكثرون نعم . وقيل لا ، وإنما ذلك بعد المبعث . وسيأتى بيان هذه المسألة فى سورة «الجن» إن شاء الله تعالى . وفى «الصافات» أيضا . قال الزجاج: والرمى بالشهب من آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم مما حدث بعد مولده؛ لأن الشعراء فى القديم لم يذكروه فى أشعارهم، ولم يشبهوا الشيء السريع به كما شبهوا بالبرق وبالسّيل . ولا يبعد أن يقال : انقضاض الكواكب كان فى قديم الزمان ولكنه لم يكن رجوما للشياطين، ثم صار رجوما حين ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال العلماء : نحن نرى انقضاض الكواكب ، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم يصير نارا إذا أدرك الشيطان . ويجوز أن يقال : يُرمَوْن بشعلة من نار من الهوى فيخيل إلينا أنه نجم سرى . والشهاب فى اللغة النار الساطعة . وذكر أبو داود عن عامر الشعبي قال : لما بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم رجمت الشياطين بنجوم لم تكن ترجم بها قبل ، فأتوا عبد ياليل بن عمرو الثقفى فقالوا : إن الناس قد فزعوا وقد أعتقوا رقيقهم وسيّبوا أنعامهم لما رأوا فى النجوم . فقال لهم ــ وكان رجلا أعمى ــ : لا تعجلوا، وانظروا فإن كانت النجوم التى تُعرف فهى عند فناء الناس، وإن كانت لا تعرف فهى من حَدَث . فنظروا فاذا هى نجوم لا تُعرف، فقالوا : هذا من حدث . فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ هذا من نعمه أيضا ، ومما يدل على كمال قدرته . قال ابن عباس : بسطناها على وجه الماء؛ كما قال : « وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا »(٢) أى

(١) فى قوله تعالى : « لا يسّمّعون إلى الملإ الأعلى ... » آية ٨ . (٢) آية ٣٠ سورة النازعات .

بسطها . وقال : « والأَرْضَ فَرَشْنَاها فَنِعْمَ المَاهِدُونَ »(1) . وهو رد على من زعم أنها كالكرة . وقد تقدم(2) . ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثابتة لئلا تتحرك بأهلها . ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ أى مقدر معلوم؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير . وإنما قال «موزون» لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء . قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرّة * عندى لكل مُخاصم مِيزانُه

وقال قتادة : موزون يعنى مقسوم . وقال مجاهد : موزون معدود . ويقال : هذا كلام موزون؛ أى منظوم غير منتثر . فعلى هذا أى أنبتنا فى الأرض ما يوزن من الجواهر والحيوانات والمعادن . وقد قال الله عز وجل فى الحيوان : « وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً »(3) . والمقصود من الإنبات الإنشاءُ والإيجاد . وقيل : ﴿ أنبتنا فيها ﴾ أى فى الجبال ﴿ من كل شيء موزون ﴾ من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقزدير، حتى الزِّرنيخ والكحل، كل ذلك يوزن وزنا . رُوى معناه عن الحسن وابن زيد . وقيل : أنبتنا فى الأرض الثمار مما يكال ويوزن . وقيل : ما يوزن فيه الأثمان لأنه أجلّ قدرا وأعم نفعا مما لا ثمن له . ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ يعنى المطاعم والمشارب التى يعيشون بها؛ واحدها معيشة (بسكون الياء) . ومنه قول جرير :

تكلّفنى مَعِيشَةَ آلِ زيدٍ * ومَن لى بالمرقّق والصِّنابِ(4)

والأصلُ مَعْيِشة على مَفْعِلة (بتحريك الياء) . وقد تقدم فى الأعراف(5) . وقيل : إنها الملابس؛ قاله الحسن . وقيل : إنها التصرف فى أسباب الرزق مدة الحياة . قال الماوردىّ : وهو الظاهر . ﴿ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ يريد الدواب والأنعام؛ قاله مجاهد . وعنده أيضا هم العبيد والأولاد الذين قال الله فيهم : « نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ »(6) ولفظ « من » يجوز أن يتناول العبيد والدواب إذا اجتمعوا ؛ لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل، غُلِّب من يعقل . أى

---

(1) آية ٤٨ سورة الذاريات .

(2) فى قوله تعالى : « وهو الذى مد الأرض .. » آية ٣ سورة الرعد . راجع جـ ٩ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية .

(3) آية ٣٧ سورة آل عمران .

(4) الصناب : الخردل المضروب بالزبيب، يؤتدم به .

(5) راجع جـ ٧ ص ١٦٧ طبعة أولى أو ثانية .

(6) آية ٣١ سورة الإسراء .

جعلنا لكم فيها معايش وعبيدا وإماء ودواب وأولادا نرزقهم ولا ترزقونهم . فـ«من» على هذا التأويل في موضع نصب؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : أراد به الوحش . قال سعيد : قرأ علينا منصور «ومَنْ لستم له برازقين» قال : الوحش . فـ«من» على هذا تكون لما لا يعقل؛ مثل «فمنهم من يمشي على بطنه»(١) الآية . وهي في محل خفض عطفا على الكاف والميم في قوله : «لكم» . وفيه قبح عند البصريين؛ فإنه لا يجوز عندهم عطف الظاهر على المضمر إلا بإعادة حرف الجر؛ مثل مررت به وبزيد . ولا يجوز مررت به وزيد إلا في الشعر . كما قال :

فاليوم قرَّبت تهجونا وتشتمنا * فاذهب فما بك والأيام من عَجَب

وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» وسورة «النساء» .

قوله تعالى : وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي وإن من شيء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا عندنا خزائنه؛ يعني المطر المنزل من السماء، لأن به نبات كل شيء . قال الحسن : المطر خزائن كل شيء . وقيل : الخزائن المفاتيح، أي في السماء مفاتيح الأرزاق؛ قاله الكلبي . والمعنى واحد . ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أي ولكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا وعلى حسب حاجة الخلق إليه؛ كما قال : «وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ»(٢) . وروى عن ابن مسعود والحكم بن عيينة وغيرهما أنه ليس عام أكثر مطرا من عام، ولكن الله يقسمه كيف شاء، فيُمطَر قوم ويحرم آخرون، وربما كان المطر في البحار والقفار . والخزائن جمع الخزانة، وهو الموضع الذي يستر فيه الإنسان ما له . والخزانة أيضا مصدر خَزَن يخزُن . وما كان في خزانة الإنسان كان مُعَدًّا له . فكذلك ما يقدر عليه الرب

---

(١) آية ٤٥ سورة النور . (٢) آية ٢٧ سورة الشورى .

فكأنه معَدٌّ عنده؛ قاله القشيرى . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال : فى العرش مثال كل شىء خلقه الله فى البر والبحر . وهو تأويل قوله تعالى: « وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ » . والإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد؛ كقوله : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ »(١) وقوله : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ »(٢) . وقيل : الإنزال بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالا لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء .

قوله تعالى : وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ ﴾ قراءة العامة « الرياح » بالجمع . وقرأ حمزة بالتوحيد؛ لأن معنى الريح الجمع أيضا وإن كان لفظها لفظ الواحد . كما يقال : جاءت الريح من كل جانب . كما يقال : أرضٌ سَباسِبُ(٣) وثوبٌ أخلاق . وكذلك تفعل العرب فى كل شىء اتسع . وأما وجه قراءة العامة فلأن الله تعالى نعتها بـ « لواقح » وهى جمع . ومعنى لواقح حوامل؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع . قال الأزهرى : وجعل الريح لاقحا لأنها تحمل السحاب؛ أى تُقِلّه وتصرفه ثم تَمْرِيه(٤) فتستدرّه، أى تنزله؛ قال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا »(٥) أى حملت . وناقة لاقح ونُوق لواقح إذا حملت الأجنة فى بطونها . وقيل : لواقح بمعنى مُلْقِحة وهو الأصل ، ولكنها لا تُلْقِح إلا وهى فى نفسها لاقح، كأن الرياح لَقِحت بخير . وقيل : ذوات لَقْح، وكل ذلك صحيح؛ أى منها ما يُلْقِح الشجر؛ كقولهم : عيشة راضية ؛ أى فيها رضًا، وليل نائم؛ أى فيه نوم . ومنها ما تأتى بالسحاب . يقال : لَقِحت الناقة (بالكسر) لَقَحا ولَقاحا (بالفتح) فهى لاقح . وألقحها الفحل أى ألقى إليها

(١) آية ٦ سورة الزمر . (٢) آية ٢٥ سورة الحديد . (٣) السبسب : الأرض المستوية البعيدة .
(٤) مَرَت الريح السحاب : إذا أنزلت منه المطر . (٥) آية ٥٧ سورة الأعراف .

الماء فحملته؛ فالرياح كالفحل للسحاب . قال الجوهري : ورياح لواقح ولا يقال ملاقح، وهو من النوادر . وحكى المهدوي عن أبي عبيدة : لواقح بمعنى ملاقح، ذهب إلى أنه جمع مُلقِحة ومُلقِح، ثم حذفت زوائده . وقيل : هو جمع لاقحة ولاقح، على معنى ذات اللقاح على النسب . ويجوز أن يكون معنى لاقح حاملا . والعرب تقول للجنوب : لاقح وحامل، وللشمال حائل وعقيم . وقال عبيد بن عُمير : يرسل الله المبشرة فتقم الأرض قمّا (١)، ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب، ثم يرسل المؤلفة فتؤلفه، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر . وقيل : الريح اللاقح التي تحمل الندى فتمجّه في السحاب، فإذا اجتمع فيه صار مطرا . وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الريح الجنوب من الجنة وهي الريح اللواقح التي ذكرها الله في كتابه وفيها منافع للناس" . وروى عنه عليه السلام أنه قال : "ما هبّت جنوب إلا أنبع الله بها عينا غَدِقة" . وقال أبو بكر بن عياش : لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها؛ فالصَّبا تهيّجه، والدَّبور تُلقحه، والجنوب تُدِرّه، والشمال تفرّقه .

الثانية — روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم عن مالك — واللفظ لأشهب — قال مالك : قال الله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » فلقاح القمح عندي أن يحبب ويُسَنبِل، ولا أدري ما ييبس في أكمامه، ولكن يُحبِّب حتى يكون لو يبس حينئذ لم يكن فساد الأخير فيه . ولقاح الشجر كلها أن تثمر ثم يسقط منها ما يسقط ويثبت ما يثبت؛ وليس ذلك بأن تورّد . قال ابن العربي : إنما عوّل مالك في هذا التفسير على تشبيه لقاح الشجر بلقاح الحمل، وأن الولد إذا عقد وخلق ونفخ فيه الروح كان بمنزلة تحبب الثمر وتسنبله؛ لأنه سُمي باسم تشترك فيه كل حاملة وهو اللقاح، وعليه جاء الحديث "نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن بيع الحَبّ حتى يشتد" . قال ابن عبد البر : الإبّار عند أهل العلم في النخل التلقيح، وهو أن يؤخذ شيء من طلع [ذكور] النخل فيُدخَل بين ظهراني طلع الإناث .

---

(١) قم البيت : كنسه .

ومعنى ذلك فى سائر الثمار طلوع الثمرة من التين وغيره حتى تكون الثمرة مرئية منظورا إليها. والمعتبر عند مالك وأصحابه فيما يذكر من الثمار التذكير ، وفيما لا يذكر أن يثبت من نواره ما يثبت ويسقط ما يسقط . وحدّ ذلك فى الزرع ظهوره من الأرض ؛ قاله مالك . وقد روى عنه أن إباره أن يحبب . ولم يختلف العلماء أن الحائط إذا انشق طلع إناثه فأخر إباره وقد أبر غيره ممن حاله مثل حاله ، أن حكمه حكم ما أبر ؛ لأنه قد جاء عليه وقت الإبار وثمرته ظاهرة بعد تغيبها فى الحب . فإن أبر بعض الحائط كان ما لم يؤبر تبعا له . كما أن الحائط إذا بدا صلاحه كان سائر الحائط تبعا لذلك الصلاح فى جواز بيعه .

الثالثــة ـــ روى الأئمة كلهم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من ابتاع نخلا بعد أن تؤبر فثمرتها للذى باعها إلا أن يشترط المبتاع . ومن ابتاع عبدا فماله للذى باعه إلا أن يشترطه المبتاع " . قال علماؤنا : إنما لم يدخل الثمر المؤبر مع الأصول فى البيع إلا بالشرط ؛ لأنه عين موجودة يحاط بها أمن سقوطها غالبا . بخلاف التى لم تؤبر ؛ إذ ليس سقوطها مأمونا فلم يتحقق لها وجود ، فلم يجز للبائع اشتراطها ولا استثناؤها ؛ لأنها كالجنين . وهذا هو المشهور من مذهب مالك . وقيل : يجوز استثناؤها ؛ وهو قول الشافعى .

الرابعــــة ـــ لو اشترى النخل وبقى الثمر للبائع جاز لمشترى الأصل شراء الثمرة قبل طيبها على مشهور قول مالك ، ويرى لها حكم التبعية وإن أفردت بالعقد . وعنه فى رواية : لا يجوز . وبذلك قال الشافعى وأبو حنيفة والثورى وأهل الظاهر وفقهاء الحديث . وهو الأظهر من أحاديث النهى عن بيع الثمرة قبل بدو صلاحها .

الخامســـة ـــ ومما يتعلق بهذا الباب النهى عن بيع الملاقح ؛ والملاقح الفحول من الإبل ؛ الواحد مُلقح . والملاقح أيضا الإناث التى فى بطونها أولادها ، الواحدة ملقَحة (بفتح القاف) . والملاقيح ما فى بطون النوق من الأجنة ، الواحدة ملقوحة ؛ من قولهم : لُقِحت ؛ كالمحموم من حُمّ ، والمجنون من جُنّ . وفى هذا جاء النهى . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم :

أنه نهى عن المجر وهو بيع ما فى بطون الإناث . ونهى عن المضامين والملاقيح . قال أبو عبيد : المضامين ما فى البطون، وهى الأجنة . والملاقيح ما فى أصلاب الفحول . وهو قول سعيد بن المسيّب وغيره . وقيل بالعكس : إن المضامين ما فى ظهور الجمال ، والملاقيح ما فى بطون الإناث . وهو قول ابن حبيب وغيره . وأىّ الأمرين كان ، فعلماء المسلمين مجمعون على أن ذلك لا يجوز . وذكر المزنى عن ابن هشام شاهدا بأن الملاقيح ما فى البطون لبعض الأعراب :

مَنِيَّتِى مَلاحِقًا فى الأبطُنِ ‍ * ‍ تُنْتَج ما تَلْقَحُ بعد أزْمُنِ (١)

وذكر الجوهرىّ على ذلك شاهدا قول الراجز :

إنّا وجدنا طَرَدَ الهَوامِلِ ‍ * ‍ خيرا من التّأنان والمسائلِ (٢)

وعِدَةِ العَامِ وعامٍ قابِلِ ‍ * ‍ مَلقوحةً فى بطن نابٍ حامِلِ

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السحاب . وكل ما علاك فأظلك يسمى سماء . وقيل : من جهة السماء . ﴿ مَاءً ﴾ أى قطرا . ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أى جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم . وقيل : سَقى وأسقى بمعنًى . وقيل بالفرق ، وقد تقدّم (٣) . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ أى ليست خزائنه عندكم ؛ أى نحن الخازنون لهذا الماء ننزله إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا . ومثله « وأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤) » ، « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (٥) » . وقال سفيان : لستم بما نعين المطر .

قوله تعالى : وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾

أى الأرض ومن عليها ، ولا يبقى شىء سوانا . نظيره « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٦) » . فلك كلّ شىء لله تعالى . ولكن ملّك عباده أملاكا فإذا ماتوا انقطعت

(١) كذا فى الأصل . (٢) الهوامل : الإبل المهملة . والتأنان : الأنين . والناب : الناقة المسنة . والحائل : التى لم تحمل . (٣) راجع جـ ١ ص ٤١٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ٤٨ سورة الفرقان . (٥) آية ١٨ سورة المؤمنون . (٦) آية ٤٠ سورة مريم .

الدعاوى، فكان الله وارثا من هذا الوجه . وقيل : الإحياء في هذه الآية إحياء النطفة في الأرحام . فأما البعث فقد ذكره بعد هذا في قوله : « وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ » .

قوله تعالى : وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ فيه ثمان تأويلات : الأول — « المستقدمين » في الخلق إلى اليوم، و « المستأخرين » الذين لم يخلقوا بعد ؛ قاله قتادة وعكرمة وغيرهما . الثاني — « المستقدمين » الأموات، و « المستأخرين » الأحياء ؛ قاله ابن عباس والضحاك . الثالث — « المستقدمين » من تقدم أمة محمد ؛ و « المستأخرين » أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله مجاهد . الرابع — « المستقدمين » في الطاعة والخير، و « المستأخرين » في المعصية والشر ؛ قاله الحسن وقتادة أيضا . الخامس — « المستقدمين » في صفوف الحرب، و « المستأخرين » فيها ؛ قاله سعيد بن المسيب . السادس — « المستقدمين » من قتل في الجهاد، و « المستأخرين » من لم يقتل ؛ قاله القرظي . السابع — « المستقدمين » أول الخلق ، و « المستأخرين » آخر الخلق ؛ قاله الشعبي . الثامن — « المستقدمين » في صفوف الصلاة، و « المستأخرين » فيها بسبب النساء . وكل هذا معلوم لله تعالى ؛ فإنه عالم بكل موجود ومعدوم ، وعالم بمن خلق وما هو خالقه إلى يوم القيامة . إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية ؛ لما رواه النسائي والترمذي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطه، فأنزل الله عز وجل « وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ » . وروى عن أبي الجوزاء ولم يذكر ابن عباس . وهو أصح .

الثانيـــة ــ هذا يدل على فضل أوّل الوقت فى الصلاة وعلى فضل الصف الأول؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لو يعلم الناس ما فى النـداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا (١)" . فاذا جاء الرجل عند الزوال فنزل فى الصف الأوّل مجاور الإمام، حاز ثلاث مراتب فى الفضل: أوّل الوقت، والصف الأول، ومجاورة الإمام . فان جاء عند الزوال فنزل فى الصف الآخر أو فيما نزل عن الصف الأول، فقد حاز فضل أوّل الوقت وفاته فضل الصف الأول والمجاورة . فإن جاء وقت الزوال ونزل فى الصف الأوّل دون ما يلى الإمام فقد حاز فضل أوّل الوقت وفضل الصف الأوّل، وفاته مجاورة الإمام . فإن جاء بعد الزوال ونزل فى الصف الأوّل فقد فاته فضيلة أول الوقت، وحاز فضيلة الصف الأوّل ومجاورة الإمام . وهكذا . ومجاروة الإمام لا تكون لكل أحد، و إنما هى كما قال صلى الله عليه وسلم : "ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى" الحديث . فما يلى الإمام ينبغى أن يكون لمن كانت هذه صفته ، فإن نزلها غيره أخّر وتقـدّم هو إلى الموضـع ؛ لأنه حقه بأمر صاحب الشرع ، كالمحراب هو موضع الإمام تقدّم أو تأخر؛ قاله ابن العربي .

قلت : وعليه يحمـل قول عمر رضى الله عنه : تأخر يا فلان ، تقدّم يا فلان ؛ ثم يتقدّم فيكبر . وقد روى عن كعب أن الرجل من هذه الأمة ليخرّ ساجدا فيغفر لمن خلفه . وكان كعب يتوخى الصف المؤخر من المسجد رجاء ذلك ، ويذكر أنه وجده كذلك فى التوراة . ذكره الترمذيّ الحكيم فى نوادر الأصول . وسيأتى فى سورة « الصافات » زيادة بيان لهذا الباب إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة ــ وكما تدل هـــذه الآية على فضل الصف الأوّل فى الصلاة ، فكذلك تدل على فضل الصف الأوّل فى القتال ؛ فإن القيام فى نحر العدوّ ، وبيع العبد نفسه من الله تعالى لا يوازيه عمل؛ فالتقدّم إليه أفضـل ، ولا خلاف فيه ولا خفاء به . ولم يكن أحد يتقدّم فى الحرب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان أشجع الناس . قال البَرَاء : كنا والله إذا احمرّ البأس نتّقى به ، وإن الشجاع منا للذى يحاذى به ، يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(١) أى إلا أن يقترعوا .

قوله تعالى : وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أى للحساب والجزاء . ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ تقدم (١) .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى آدم عليه السلام . ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ أى من طين يابس؛ عن ابن عباس وغيره . والصلصال : الطين الحرّ خُلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جفّ، فإذا طبخ بالنار فهو الفخّار؛ عن أبى عبيدة . وهو قول أكثر المفسرين . وأنشد أهل اللغة :

كعَدْوِ المُصَلْصِلِ الجَوَّالِ (٢)

وقال مجاهد : هو الطين المُنْتِن؛ واختاره الكسائى . قال : وهو من قول العرب : صلّ اللحمُ وأصلّ إذا أنتن — مطبوخا كان أو نيئا — يَصِلّ صلولا . قال الحُطَيئة :

ذاك فتى يبذُل ذا قِدْرِه * لا يُفسِد اللحمَ لديه الصُّلول

وطين صَلّال ومِصْلال؛ أى يصوّت إذا نقرته كما يصوّت الحديد . فكان أوّل ترابا؛ أى متفرّق الأجزاء ثم بُلّ فصار طينا؛ ثم تُرِك حتى أنتن فصار حمأ مسنونا؛ أى متغيرا؛ ثم يبِس فصار صلصالا؛ على قول الجمهور . وقد مضى فى «البقرة» (٣) بيان هذا . والحمأ : الطين الأسود، وكذلك الحمأة بالتسكين؛ تقول منه : حمئت البئرُ حمْأ (بالتسكين) إذا نزعت حمأتها . وحَمِئت البئر حمأ (بالتحريك) كثرت حمأتُها . وأحمأتُها إحماء ألقيتُ فيها الحمأة؛ عن ابن السِّكِّيت . وقال أبو عبيدة : الحمأة (بسكون الميم) مثل الكمأة . والجمع حَمْءٌ، مثل تمرة وتمر . والحمأ المصدر، مثل الهلع والجزع؛ ثم سُمّى به . والمسنون المتغيّر . قال ابن عباس : هو التراب المبتل المنتن،

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) هذا عجز البيت . وتمامه كما فى اللسان :

عنتريس تعدو إذا مسها الصو * ت كعدو المصلصل الجوال

(٣) راجع المسألة الأولى جـ ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

يجعل صلصالا كالفخار . ومثله قول مجاهد وقتادة ، قالا : المنتن المتغيّر ؛ من قولهم : قد أَسِن الماء إذا تغيّر ؛ ومنه « يَتَسَنَّه » و « ماءٍ غيرِ آسِنٍ » . ومنه قول أبي قيس بن الأسلت :

سقيت صداى رُضابا غير ذى أسن * كالمسك فُتَّ على ماء العناقيد

وقال الفراء : هو المتغير ، وأصله من قولهم : سَنَنت الحجر على الحجر إذا حككته به . وما يخرج من الحجرين يقال له السنانة والسَّنين ؛ ومنه المِسن . قال الشاعر :

ثم خاصرتُها إلى القبة الحمـ(1) * ـراء تمشى في مَرْمَرٍ مَسنون

أي محكوك مُملَّس . حُكي أن يزيد بن معاوية قال لأبيه : ألا ترى عبد الرحمن بن حسان يُشبِّب بابنتك . فقال معاويةُ : وما قال ؟ فقال قال :

هي زَهْراءُ مثلُ لؤلؤة الغوّ * اص مِيزَتْ من جوهرٍ مَكْنونِ

فقال معاوية : صدق ! فقال يزيد : [إنه يقول](2) :

وإذا ما نَسبْتَها لم تجدها * في سَناء من المكارم دونِ

فقال : صدق ! فقال : أين قوله : ثم خاصرتها ... البيت . فقال معاوية : كذب . وقال أبو عبيدة : المسنون المصبوب ، وهو من قول العرب : سننت الماء وغيره على الوجه إذا صببته . والسَّن الصب . وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : المسنون الرَّطب ؛ وهذا بمعنى المصبوب ؛ لأنه لا يكون مصبوبا إلا وهو رطب . النحاس : وهذا قول حسن ؛ لأنه يقال : سننت الشيء أي صببته . قال أبو عمرو بن العلاء : ومنه الأثر المرويّ عن عمر(3) أنه كان يَسُنّ الماء على وجهه ولا يَشُنّه . والشنّ (بالشين) تفريق الماء ، وبالسين المهملة صبه من غير تفريق . وقال سيبويه : المسنون المصوّر . أخذ من سُنّة الوجه وهو صورته . وقال ذو الرمة :

تُريك سُنّة وجهٍ غيرَ مُقْرِفة * ملساء ليس بها خالٌ ولا نَدَبُ(4)

(1) في اللسان : الخضراء . (2) الزيادة عن اللسان . (3) في نهاية ابن الأثير : « ابن عمر » .

(4) السنة : الصورة . والمقرفة : التي دنت من الهجنة . والندب : الأثر من الجراح والقراح . وقوله : غير مقرفة ؛ أي غير هجينة ، عفيفة كريمة .

وقال الأخفش : المسنون المنصوب القائم؛ من قولهم: وجه مسنون إذا كان فيه طول . وقد قيل : إن الصَّلصال التراب المدقق؛ حكاه المهدوي . ومن قال : إن الصلصال هو المنتن فأصله صلّال، فأبدل من إحدى اللامين الصاد . و « مِنْ حَمَإٍ » مفسر لجنس الصلصال؛ كقولك : أخذت هذا من رجل من العرب .

قوله تعالى : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ والجَانَّ خلقناه مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل خلق آدم . وقال الحسن : يعني إبليس، خلقه الله تعالى قبل آدم عليه السلام . وسُمِّيَ جانا لتواريه عن الأعين . وفي صحيح مسلم من حديث ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لما صوّر الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك[1]" . ﴿ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ قال ابن مسعود : نار السموم التي خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءا من نار جهنم . وقال ابن عباس : السموم الريح الحارة التي تقتل . وعنه : أنها نار لا دخان لها، والصواعق تكون منها، وهي نار تكون بين السماء والحجاب . فإذا أحدث الله أمرا اخترقت الحجاب فهوت الصاعقة إلى ما أُمرت . فالهَدّة[2] التي تسمعون خرق ذلك الحجاب . وقال الحسن : نار السموم نار دونها حجاب، والذي تسمعون من انغطاط السحاب صوتها . وعن ابن عباس أيضا قال : كان إبليس من حيّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة — قال — : وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار .

قلت : هذا فيه نظر؛ فإنه يحتاج إلى سند يقطع العذر؛ إذ مثله لا يقال من جهة الرأي . وقد خرّج مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خُلقت الملائكة من نور وخُلق الجان من مارج من نار وخُلق آدم مما وُصف لكم" .

---

(١) أي لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات . وقيل : لا يملك نفسه عند الغضب . وقيل : لا يملك دفع الوسواس عنه . (٢) الهدة : صوت وقع الحائط ونحوه .

فقوله : " خلقت الملائكة من نور " يقتضى العموم . والله أعلم . وقال الجوهرىّ : مارج من نار نارٌ لا دخان لها خلقَ منها الجان ، والسموم الريح الحارة تؤنث ؛ يقال منه : سمّ يومُنا فهو يوم مسموم ، والجمع سمائم . قال أبو عبيدة : السَّمُوم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحَرُور بالليل وقد تكون بالنهار . القشيرىّ : وسُمِّيت الريح الحارة سموما لدخولها فى مَسامّ البدن .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ تقدم فى « البقرة » . ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ من طين . ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ أى سوّيت خلقه وصورته . ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى ﴾ النفخ إجراء الريح فى الشىء . والرُّوح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم . وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ؛ فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفا وتكريما ؛ كقوله : " أرضى وسمائى وبيتى وناقة الله وشهر الله " . ومثله « ورُوحٌ منه » وقد تقدم فى « النساء » مبيّنا . وذكرنا فى كتاب (التذكرة) الأحاديث الواردة التى تدل على أن الروح جسم لطيف ، وأن النفس والروح اسمان لمسمًّى واحد . وسيأتى ذلك إن شاء الله . ومن قال إن الروح هو الحياة قال أراد : فإذا ركّبت فيه الحياة . ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ أى خِرّوا له ساجدين . وهو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة . ولله أن يفضل من يريد ؛ ففضل الأنبياء على الملائكة . وقد تقدم فى « البقرة » هذا المعنى . وقال القفّال : كانوا أفضل من آدم ، وامتحنهم بالسجود له تعريضا لهم للثواب الجزيل . وهو مذهب المعتزلة . وقيل : أمروا بالسجود لله عند آدم ، وكان آدم قبلة لهم .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٦٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٩١ وما بعدها . طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — لا شك أن إبليس كان مأمورا بالسجود ؛ لقوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ »(١) وإنما منعه من ذلك الاستكبارُ والاستعظام ؛ كما تقدّم في « البقرة »(٢) بيانه . ثم قيل : كان من الملائكة ؛ فهو استثناء من الجنس . وقال قوم : لم يكن من الملائكة ؛ فهو استثناء منقطع . وقد مضى في « البقرة »(٣) هذا كلّه مستوفًى . وقال ابن عباس : الجانّ أبو الجن وليسوا شياطين . والشياطين ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس . والجن يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر . فآدم أبو الإنس . والجانّ أبو الجن . وإبليس أبو الشياطين ؛ ذكره الماوردي . والذي تقدّم في « البقرة » خلاف هذا ، فتأمله هناك .

الثانية — الاستثناء من الجنس غير الجنس صحيح عند الشافعيّ ، حتى لو قال : لفلان عليّ دينار إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا قفيز حنطة ، وما جانس ذلك كان مقبولا ، ويسقط عنه من المبلغ قيمة الثوب والحنطة . ويستوي في ذلك المكيلات والموزونات والمقدّرات . وقال مالك وأبو حنيفة رضي الله عنهما : استثناء المكيل من الموزون والموزون من المكيل جائز ، حتى لو استثنى الدراهم من الحنطة والحنطة من الدراهم قُبل . فأما إذا استثنى المقوّمات من المكيلات أو الموزونات ، والمكيلات من المقوّمات ، مثل أن يقول : عليّ عشرة دنانير إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا دينارا لا يصح الاستثناء ، ويلزم المقرّ جميع المبلغ . وقال محمد بن الحسن : الاستثناء من غير الجنس لا يصح ، ويلزم المقر جملة ما أقر به . والدليل

---

(١) آية ١٢ سورة الأعراف . راجع جـ ٧ ص ١٦٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٩٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

لقول الشافعي أن لفظ الاستثناء يستعمل فى الجنس وغير الجنس ؛ قال الله تعالى : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا »[1] فاستثنى السلام من جملة اللغو . ومثله « فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس » وإبليس ليس من جملة الملائكة ؛ قال الله تعالى : « إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه »[2] . وقال الشاعر :

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ * إلا اليعافيرُ وإلا العِيسُ

فاستثنى اليعافير وهى ذكور الظباء ، والعِيس وهى الجمال البيض من الأنيس ؛ ومثله قول النابغة[3] :

... ... * ... ...

قوله تعالى : قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ ﴾ أى ما المانع لك . ﴿ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ أى فى ألا تكون . ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ بيّن تكبّره وحسده ، وأنه خير منه ، إذ هو من نار والنار تأكل الطين ؛ كما تقدّم فى « الأعراف »[4] بيانه . ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أى من السموات ، أو من جنة عدن ، أو من جملة الملائكة . ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أى مرجوم بالشهب . وقيل : ملعون مشئوم . وقد تقدّم هذا كله مستوفى فى البقرة والأعراف . ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾ أى لعنتى ؛ كما فى سورة « ص »[5] .

(١) آية ٢٥ سورة الواقعة . (٢) آية ٥٠ سورة الكهف . (٣) لم يذكر المؤلف رحمة الله عليه قول النابغة ، أو لعله سقط من الناسخ . ولعله يشير الى قوله :

حلفت يمينا غير ذى مثنوية * ولا علم إلا حسن ظن بصاحب

وهذا البيت أورده سيبويه فى كتابه شاهدا على نصب ما بعد إلا على الاستثناء المنقطع ؛ لأن حسن الظن ليس من العلم . والمثنوية : الاستثناء فى اليمين . والمعنى : حلفت غير مستثن فى يمينى حسن ظنى بصاحبى قام عندى مقام العلم الذى يوجب اليمين . (راجع كتاب سيبويه) . (٤) راجع جـ ٧ ص ١٧٠ طبعة أولى أو ثانية . (٥) آية ٧٨ .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ هذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلته عند الله تعالى ، وأنه أهل أن يجاب له دعاء ؛ ولكن سأل تأخير عذابه زيادة فى بلائه ؛ كفعل الآيس من السلامة . وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون : ألا يموت ؛ لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده . قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ يعنى من المؤجلين . ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ قال ابن عباس : أراد به النفخة الأولى ، أى حين تموت الخلائق . وقيل : الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ، ويجهله إبليس . فيموت إبليس ثم يبعث ؛ قال الله تعالى : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ »(١) . وفى كلام الله تعالى له قولان : أحدهما — كلمه على لسان رسوله . الثانى — كلمه تغليظا فى الوعيد لا على وجه التكرمة والتقريب .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ تقدّم معنى الإغواء والزينة فى الأعراف(٢) . وتزيينه هنا يكون بوجهين : إما بفعل المعاصى ، وإما بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة . ومعنى ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى لأضلنهم عن طريق الهدى . وروى ابن لَهيعة عبدُ الله عن دُرّاج أبى السمح عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس قال يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم فقال الرب وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى " .

---

(١) آية ٢٦ سورة الرحمن . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٧٤ و ١٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤٠)

قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام ؛ أى الذين استخلصتهم وأخلصتهم . وقرأ الباقون بكسر اللام ؛ أى الذين أخلصوا لك العبادة من فساد أو رياء . حكى أبو ثمامة أن الحواريين سألوا عيسى عليه السلام عن المخلصين لله فقال : " الذى يعمل ولا يحب أن يحمده الناس " .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٤١)

قال عمر بن الخطاب : معناه هذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجُم به على الجنة . الحسن : « علىّ » بمعنى إلىّ . مجاهد والكسائىّ : هذا على الوعيد والتهديد ؛ كقولك لمن تُهدّده : طريقك علىّ ومصيرك إلىّ . وكقوله : « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ »(١) . فكان معنى الكلام : هذا طريقٌ مرجعه إلىّ فأجازى كُلًّا بعمله ؛ يعنى طريق العبودية . وقيل : المعنى علىّ أن أدل على الصراط المستقيم بالبيان والبرهان . وقيل : بالتوفيق والهداية . وقرأ ابن سيرين وقتادة والحسن وقيس بن عُبَاد وأبو رجاء وحُميد ويعقوب «هذا صِراط علىٌّ مستقيم» برفع « علىّ » وتنوينه ؛ ومعناه رفيع مستقيم ؛ أى رفيع فى الدين والحق . وقيل : رفيع أن يُنال ، مستقيم أن يمال .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (٤٢)

فيه مسألتان :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قال العلماء : يعنى على قلوبهم . وقال ابن عُيينة : أى فى أن يلقيهم فى ذنب يمنعهم عفوى ويضيقه عليهم . وهؤلاء الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم .

(١) آية ١٤ سورة الفجر .

قلت : لعل قائلا يقول : قد أخبر الله عن صفة آدم وحواء عليهما السلام بقوله : « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ »[1]، وعن جملة من أصحاب نبيّه بقوله : « إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا »[2] فالجواب ما ذكر، وهو أنه ليس له سلطان على قلوبهم، ولا موضع إيمانهم، ولا يلقيهم في ذنب يؤول إلى عدم القبول، بل تزيله التوبة وتمحوه الأوبة . ولم يكن خروج آدم عقوبة لما تناول؛ على ما تقدّم في « البقرة »[3] بيانه . وأما أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فقد مضى القول عنهم في آل عمران[2] . ثم إن قوله سبحانه : « ليس لك عليهم سلطان » يحتمل أن يكون خاصا فيمن حفظه الله ، ويحتمل أن يكون في أكثر الأوقات والأحوال، وقد يكون في تسلطه تفريج كربة وإزالة غمة؛ كما فُعل ببلال، إذ أتاه يهدّيه كما يهدّى الصبيّ حتى نام، ونام النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يستيقظوا حتى طلعت الشمس، وفزعوا وقالوا : ما كفارة ماصنعنا بتفريطنا في صلاتنا ؟ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ليس في النوم تفريط" ففرّج عنهم . ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أي الضالين المشركين . أي سلطانه على هؤلاء؛ دليله « إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ »[4] .

الثانيــة — وهذه الآية والتي قبلها دليل على جواز استثناء القليل من الكثير والكثير من القليل؛ مثل أن يقول : عشرة إلا درهما . أو يقول : عشرة إلا تسعة . وقال أحمد ابن حنبل : لا يجوز أن يستثنى إلا قدر النصف فما دونه . وأما استثناء الأكثر من الجملة فلا يصح . ودليلنا هذه الآية ، فإن فيها استثناء « الغاوين » من العباد والعباد من الغاوين، وذلك يدل على أن استثناء الأقل من الجملة واستثناء الأكثر من الجملة جائز .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

---

(١) آية ٣٦ سورة البقرة . (٢) آية ١٥٥ سورة آل عمران، جـ ٤ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٢٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ١٠٠ سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يعني إبليس ومن اتبعه . ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ أي أطباق، طبق فوق طبق. ﴿ لِكُلِّ بَابٍ ﴾ أي لكل طبقة ﴿ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ أي حظ معلوم . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا إبراهيم أبو هارون الغنوي قال : سمعت حطان ابن عبد الله الرقاشي يقول سمعت عليًا رضي الله عنه يقول : هل تدرون كيف أبواب جهنم ؟ قلنا : هي مثل أبوابنا . قال لا، هي هكذا بعضها فوق بعض، ــ زاد الثعلبي : ووضع إحدى يديه على الأخرى ــ وأن الله وضع الجنان على الأرض، والنيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم، وفوقها الحطمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها لظى، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية، وكل باب أشد حرا من الذي يليه سبعين مرة .

قلت : كذا وقع هذا التفسير . والذي عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى الدركات، وهي مختصة بالعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهي التي تخلى من أهلها فتصفق الرياح أبوابها . ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية . قال الضحاك : في الدرك الأعلى المحمديون، وفي الثاني النصارى، وفي الثالث اليهود، وفي الرابع الصابئون، وفي الخامس المجوس، وفي السادس مشركو العرب، وفي السابع المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المائدة . قال الله تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » (١) ــ وقد تقدم في النساء ــ، وقال : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » (٢)، وقال : « فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » (٣) . وقسم معاذ بن جبل رضي الله عنه العالمين السوء من هذه الأمة تقسيما على تلك الأبواب، ذكرناه في كتاب (التذكرة) . وروى الترمذي من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل سيفه على أمتي " قال : حديث غريب . وقال أبي بن كعب : لجهنم سبعة أبواب باب منها للحرورية (٤) . وقال وهب بن منبه : بين كل بابين مسيرة سبعين

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٢٤ طبعة أولى أو ثانية. (٢) آية ٤٦ سورة غافر. (٣) آية ١١٥ سورة المائدة.

(٤) في كتاب الدر المنثور للسيوطي : « قال كعب رضي الله عنه : للشهيد نور، ولمن قاتل الحرورية عشرة أنوار . وكان يقول : لجهنم سبعة أبواب، باب منها للحرورية . قال : ولقد خرجوا في زمان داود عليه السلام » .

سنة، كلّ باب أشدّ حرًّا من الذى فوقه بسبعين ضعفا. وقد ذكرنا هذا كلّه فى كتاب التذكرة.
وروى سلام الطويل عن أبى سفيان عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى : « لها سبعةُ أبوابٍ لِكلّ بابٍ مِنهم جزءٌ مقسوم » جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا فى الله ، وجزء غفلوا عن الله ، وجزء آثروا شهواتهم على الله ، وجزء شفوْا غيظهم بغضب الله ، وجزء صيّروا رغبتهم بحظهم من الله ، وجزء عتَوْا على الله . ذكره الحَلِيمى أبو عبد الله الحسين بن الحسن فى كتاب (منهاج الدين) له ، وقال : فإن كان ثابتا فالمشركون بالله هم الثنوية . والشاكّون هم الذين لايدرون أن لهم إلٰها أولا إلٰه لهم، ويشكون فى شريعته أنها من عنده أم لا . والغافلون عن الله هم الذين يجحدونه أصلا ولا يثبتونه ، وهم الدهرية . والمؤثرون شهواتهم على الله هم المنهمكون فى المعاصى ؛ لتكذيبهم رسلَ الله وأمره ونهيه . والشافون غيظهم بغضب الله هم القاتلون أنبياء الله وسائر الداعين إليه ، المعذّبون من ينصح لهم أو يذهب غير مذهبهم . والمصيرون رغبتهم بحظهم من الله هم المنكرون بالبعث والحساب؛ فهم يعبدون ما يرغبون فيه، لهم جميع حظهم من الله تعالى . والعاتون على الله الذين لا يبالون بأن يكون ما هم فيه حقا أو باطلا، فلا يتفكرون ولا يعتبرون ولا يستدلون . والله أعلم بما أراد رسوله صلى الله عليه وسلم إن ثبت الحديث . ويروى أن سلمان الفارسيّ رضى الله عنه لما سمع هذه الآية « وإن جهنم لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » فرّ ثلاثة أيام من الخوف لا يعقل ، فجىء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية « وإن جهنم لَمَوْعِدُهم أجمعين » ؟ فو الذى بعثك بالحق لقد قطعت قلبى؛ فأنزل الله تعالى « إنّ المتقين فى جناتٍ وعيُونٍ » . وقال بلال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلى فى مسجد المدينة وحده ، فمرت به امرأة أعرابية فصلت خلفه ولم يعلم بها، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « لها سبعة أبوابٍ لِكل بابٍ مِنهم جزء مقسوم » فخرّت الأعرابية مغشيًّا عليها ، وسمع النبيّ صلى الله عليه وسلم وَجْبتها (١) فانصرف ودعا بماء فصبّ

---

(١) الوجبة : صوت الشىء يسقط فيسمع له كالهدّة .

على وجهها حتى أفاقت وجلست ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا هذه مالك " ؟ فقالت : أهذا شيء من كتاب الله المنزل ، أو تقوله من تلقاء نفسك ؟ فقال : " يا أعرابية ، بل هو من كتاب الله تعالى المنزل " فقالت : كل عضو من أعضائي يعذب على كل باب منها ؟ قال : " يا أعرابيـة ، بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذّب أهل كل منها على قدر أعمالهم " فقالت : والله إني امرأة مسكينة ، مالي مال ، ومالي إلا سبعة أعبد ، أشهدك يا رسول الله ، أن كل عبد منهم عن كل باب من أبواب جهنم حُرٌّ لوجه الله تعالى . فأتاه جبريل فقال : " يا رسول الله ، بشّر الأعرابية أن الله قد حرّم عليها أبواب جهنم كلها وفتح لها أبواب الجنة كلها " .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي الذين اتقوا الفواحش والشرك . ﴿ فِي جَنَّـٰتٍ ﴾ أي بساتين . ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ هي الأنهار الأربعة : ماء وخمر ولبن وعسل . وأما العيون المذكورة في سورة « الإنسان » : الكافور والزنجبيل والسلسبيل ، وفي « المطففين » : التسنيم ، فيأتي ذكرها وأهلها إن شاء الله . وضم العين من « عُيُونٍ » على الأصل ، والكسر مراعاة للياء ، وقرئ بهما . ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ قراءة العامة « ادخلوها » بوصل الألف وضم الخاء ، من دخل يدخُل ، على الأمر . تقديره : قيل ادخلوها . وقرأ الحسن وأبو العالية ورُوَيس عن يعقوب « ٱدخِلوها » بضم التنوين ووصل الألف وكسر الخاء على الفعل المجهول ، من أدخل . أي أدخلهم الله إياها . ومذهبهم كسر التنوين في مثل « برحمةٍ ٱدخلوا الجنة »(١) وشبهه ؛ إلا أنهم هاهنا ألقوا حركة الهمزة على التنوين ؛ إذ هي ألف قطع ، ولكن فيه انتقال من كسر إلى ضم ثم من ضم إلى كسر فيثقل على اللسان . ﴿ بِسَلَـٰمٍ ﴾ أي بسلامة من كل داء وآفة . وقيل : بتحية من الله لهم . ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ أي من الموت والعذاب والعزل والزوال .

(١) آية ٤٩ سورة الأعراف .

قوله تعالى : وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

قال ابن عباس : أوّل مايدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان، فيشربون من إحدى العينين فيُذهب الله ما فى قلوبهم من غل، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم ، وتجرى عليهم نضرة النعيم ؛ ونحوه عن علىّ رضى الله عنه . وقال علىّ بن الحسين : نزلت فى أبى بكر وعمر وعلىّ والصحابة ، يعنى ما كان بينهم فى الجاهلية من الغل . والقول الأوّل أظهر، يدلّ عليه سياق الاية . وقال علىّ رضى الله عنه : أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من هؤلاء . والغل : الحقد والعداوة؛ يقال منه : غَلّ يغِلّ . ويقال من الغلول وهو السرقة من المغْنَم : غَلّ يَغُلّ . ويقال من الخيانة : أَغَلّ يُغِلّ . كما قال[1] :

جَزَى الله عنا حَمْزَةَ بنةَ نَوفلٍ * جزاءَ مُغِلٍّ بالأمانة كاذبِ

وقد مضى هذا فى آل عمران[2] . ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ أى لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلًا وتحابُبًا ؛ عن مجاهد وغيره . وقيل : الأسرة تدور كيفما شاءوا ، فلا يرى أحد قفا أحد . وقيل : « متقابلين » قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهن بالودّ . وسُرُر جمع سرير . مثل جديد وجدد . وقيل : هو من السرور ؛ فكأنه مكان رفيع ممهّد للسرور . والأوّل أظهر . قال ابن عباس : على سرر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر ، السرير ما بين صنعاء[3] إلى الجابية وما بين عدن إلى أيلة . « وإخوانا » نصب على الحال من « المتقين »

---

(١) البيت للنمر بن تولب من أبيات فى أم أولاده . وكان من حديثها أن أخاه الحارث بن تولب سيد قومه أغار على بنى أسد فسبى منهم امرأة يقال لها « حمزة بنت نوفل » فوهبها لأخيه النمر فتركته فحبسها حتى استقرت وولدت له أولادا ، ثم قالت له فى بعض أيامها : إنى قد اشتقت إلى أهلى ، فقال لها : إنى أخاف ان صرت إلى أهلك أن تغلبينى على نفسك فواثقته لترجعن إليه ، ثم خانت عهده . (راجع الأغانى جـ ١٩ ص ١٥٨ طبع بولاق) .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٥٥ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) صنعاء : موضعان ، أحدهما باليمن وهى العظمى ، وأخرى قرية بالغوطة . والجابية : قرية من أعمال دمشق . وعدن : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن . وأيلة : مدينة على ساحل البحر الأحمر . (عن معجم البلدان)

أو من المضمر في « ادخلوها » ، أو من المضمر في « آمنين » ، أو يكون حالا مقدرة من الهاء والميم في «صدورهم» . ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي إعياء وتعب . ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لايزول ، وأن أهلها فيها باقون . أكلها دائم ؛ « إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ »(1) .

قوله تعالى : نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

هذه الآية وزانُ قوله عليه السلام : " لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنِط من رحمته أحد " أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . وقد تقدّم في الفاتحة(2) . وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكّر نفسه وغيره فيخوّف ويرجّي ، ويكون الخوف في الصحة أغلب عليه منه في المرض . وجاء في الحديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال : " أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار " فشق ذلك عليهم فنزلت الآية . ذكره الماورديّ والمهدويّ . ولفظ الثعلبيّ عن ابن عمر قال : اطّلع علينا النبيّ صلى الله عليه وسلم من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة ونحن نضحك فقال : " مالكم تضحكون لا أراكم تضحكون " ثم أدبر حتى إذا كان عند الحِجْر رجع القهقرى فقال لنا : " إني لما خرجت جاءني جبريل فقال يامحمد لم تُقنّط عبادي من رحمتي « نبِّئ عبادِي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابِي هو العذاب الأليم » " . فالقنوط إياس، والرجاء إهمال، وخير الأمور أوساطها .

قوله تعالى : وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾

(1) آية ٥٤ سورة ص . (2) راجع جـ ١ ص ١٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ضيف إبراهيم : الملائكة الذين بشروه (١) بالولد و بهلاك قوم لوط . وقد تقدّم ذكرهم . وكان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان، وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد . وسمى الضيف ضيفا لإضافته إليك ونزوله عليك . وقد مضى من حكم الضيف فى « هود » (٢) ما يكفى والحمد لله . ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ جمع الخبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد والجمع والتثنية والمذكر والمؤنث كالمصدر . ضافه وأضافه أماله ؛ ومنه الحديث " حين تضيف الشمس للغروب " (٣)، وضيفوفة السهم ؛ والإضافة النحوية . ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ أى سلّموا سلاما . ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أى فزعون خائفون، وإنما قال هذا بعد أن قرّب العجل ورآهم لا يأكلون، على ما تقدّم فى هود (٤) . وقيل : أنكر السلام ولم يكن فى بلادهم رسم السلام . ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ أى قالت الملائكة لا تخف . ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أى حليم؛ قاله مقاتل . وقال الجمهور : عالم . وهو إسحاق . ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ (٥) « أن » مصدرية؛ أى على مس الكبر إياى وزوجتى ، وقد تقدّم فى هود و إبراهيم؛ حيث يقول : « فَبِمَ تُبَشِّرُونَ » استفهام تعجب . وقيل : استفهام حقيق . وقرأ الحسن « تُوجل » بضم التاء . والأعمش «بشرتمونى» بغير ألف، ونافع وشيبة « تبشرونِ » بكسر النون والتخفيف؛ مثل «أتحاجونِى» وقد تقدّم تعليله (٦) . وقرأ ابن كثير وابن محيصن «تُبَشِّرُونِّ» بكسر النون مشدّدة؛ تقديره تبشروننى، فأدغم النون فى النون . الباقون « تُبشرونَ » بنصب النون بغير إضافة .

قوله تعالى : قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بما لا خلف فيه، وأن الولد لابدّ منه . ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ أى من الآيسين من الولد ، وكان قد أيس من الولد لفرط

(١) راجع جـ ٩ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٩ ص ٦٤ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) ضاف السهم : عدل عن الهدف أو الرمية .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٦٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٥) راجع جـ ٩ ص ٦٩ و ٣٧٥ .
(٦) راجع جـ [illegible] ص [illegible] طبعة أولى أو ثانية .

الكبر . وقراءة العامة « مِن القانِطين » بالألف . وقرأ الأعمش ويحي بن وثاب « من القنطين » بلا ألف . وروى عن أبى عمرو . وهو مقصور من «القانطين» . ويجوز أن يكون من لغة من قال : قَنِط يَقنَط؛ مثل حذِر يحذر . وفتح النون وكسرها من « يقنط » لغتان قرئ بهما . وحكى فيه «يقنُط» بالضم . ولم يأت فيه «قنَط يقنَط» . [و] من فتح النون فى الماضى والمستقبل فانه جمع بين اللغتين؛ فأخذ فى الماضى بلغة من قال : قنَط يقنِط، وفى المستقبل بلغة من قال : قنِط يقنَط؛ ذكره المهدوى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

أى المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب . يعنى أنه آستبعد الولد لكبر سنه لا أنه قنط من رحمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى ــ لما علم أنهم ملائكة ــ إذ أخبروه بأمر خارق للعادة وهو بشراهم بالولد ــ قال : فما خطبكم ؟ والخطب الأمر الخطير . أى فما أمركم وشأنكم وما الذى جئتم به . ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِين ﴾ أى مشركين ضالين . وفى الكلام إضمار ؛ أى أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم . ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ أتباعه وأهل دينه . ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ وقرأ حمزة والكسائى « لَمُنْجُوهُم » بالتخفيف من أنجى . الباقون : بالتشديد من نجّى؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . والتنجية والإنجاء التخليص . ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ ﴾ استثنى من آل لوط امرأته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين فى الهلاك . وقد تقدمت قصة قوم لوط

فى « الأعراف »[1] وسورة « هود »[2] بما فيه كفاية . ﴿ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى قضينا وكتبنا إنها لمن الباقين فى العذاب . والغابر : الباقى .

قال[3] :

لا تكسع الشَّوْل بأغبارها * إنك لا تدرى مَن النَّاتِج

الأغبار بقايا اللبن . وقرأ أبو بكر والمفضل « قَدَرنا » بالتخفيف هنا وفى النمل[4] ، وشدد الباقون . الهروى : يقال قدَر وقدَّر، بمعنًى .

الثانيــة — لا خلاف بين أهل اللسان وغيرهم أن الاستثناء من النفى إثبات ومن الإثبات نفى؛ فاذا قال رجل : له علىّ عشرة دراهم إلا أربعة إلا درهما؛ ثبت الإقرار بسبعة؛ لأن الدرهم مستثنًى من الأربعة، وهو مثبت لأنه مستثنى من منفى، وكانت الأربعة منفية لأنها مستثناة من موجب وهو العشرة، فعاد الدرهم إلى الستة فصارت سبعة . وكذلك لو قال : علىّ خمسة دراهم إلا درهما إلا ثلثيه؛ كان عليه أربعة دراهم وثلث . وكذلك إذا قال : لفلان علىّ عشرة إلا تسعة إلا ثمانية إلا سبعة؛ كان الاستثناء الثانى راجعا إلى ما قبله، والثالث إلى الثانى فيكون عليه درهمان؛ لأن العشرة إثبات والثمانية إثبات فيكون مجموعها ثمانية عشر . والتسعة نفى والسبعة نفى فيكون ستة عشر تسقط من ثمانية عشر ويبقى درهمان؛ وهو القدر الواجب بالإقرار لا غير . فقوله سبحانه : « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أجمعين . إلا امرأته » فاستثنى آل لوط من القوم المجرمين ، ثم قال : «إلا امرأته» فاستثناها من آل لوط ، فرجعت فى التأويل إلى القوم المجرمين كما بينا . وهكذا الحكم فى الطلاق، لو قال لزوجته : أنت طالق ثلاثا إلا اثنتين إلا واحدة طلقت ثنتين؛ لأن الواحدة رجعت إلى الباقى من المستثنى منه وهى الثلاث . وكذا كل ما جاء من هذا فتفهمه .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) القائل هو الحارث بن حلزة . والكسع : ضرب ضرع الناقة بالماء البارد ليجف لبنها و يتراد فى ظهرها فيكون أقوى لها على الجدب فى العام القابل . والشول : جمع شائلة وهى من الإبل التى أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فخف لبنها . والأغبار : جمع الغبر، وهى بقية اللبن فى الضرع . (٤) فى قوله تعالى : «فأنجيناه وأهله ...» آية ٥٧ .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أى لا أعرفكم . وقيل : كانوا شبابا ورأى جمالا فخاف عليهم من فتنة قومه ؛ فهذا هو الإنكار . ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أى يشكون أنه نازل بهم، وهو العذاب . ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . وقيل : بالعذاب . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أى فى هلاكهم . ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ تقدم فى هود (١) . ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ أى كن من ورائهم لئلا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب . ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ نُهوا عن الالتفات ليجدّوا فى السير ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح . وقيل : المعنى لا يتخلف . ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعنى الشام . مقاتل : يعنى صَفَد، قرية من قرى لوط . وقد تقدم . وقيل : إنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال له اليقين ، وإنما سمى اليقين لأن إبراهيم لما خرجت الرسل شيّعهم ، فقال لجبريل : من أين يخسف بهم ؟ قال : "من ها هنا" وحدّ له حدًّا ، وذهب جبريل ؛ فلما جاء لوط جلس عند إبراهيم وارتقبا ذلك العذاب ، فلما اهتزت الأرض قال إبراهيم : "أيقنت بالله" فسمى اليقين .

قوله تعالى : وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾

(١) راجع جـ ٩ ص ٧٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ أى أوحينا إلى لوط . ﴿ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ نظيره « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » . ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أى عند طلوع الصبح . وقد تقدّم(١) . ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ﴾ أى أهل مدينة لوط ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ مستبشرين بالأضياف طمعا منهم فى ركوب الفاحشة . ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي ﴾ أى أضيافى . ﴿ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ أى تخجلون . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ يجوز أن يكون من الخزى وهو الذل والهوان، ويجوز أن يكون من الخَزاية وهو الحياء والخجل . وقد تقدّم فى هود(٢) . ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى عن أن تضيف أحدا لأنا نريد منهم الفاحشة . وكانوا يقصدون بفعلهم الغرباء ؛ عن الحسن . وقد تقدم فى الأعراف(٣) . وقيل : أو لم ننهك عن أن تكلمنا فى أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة . ﴿ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أى فتزوجوهن ولا تركنوا إلى الحرام . وقد تقدّم بيان هذا فى هود(٤) .

قوله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال القاضى أبو بكر بن العربى : قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفا له ، أن قومه من قريش فى سكرتهم يعمهون وفى حيرتهم يترددون .

قلت : وهكذا قال القاضى عياض : أجمع أهل التفسير فى هذا أنه قسم من الله جلّ جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم . وأصله ضم العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال . ومعناه وبقائك يا محمد . وقيل وحياتك . وهذا نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف . قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أكرم البرية عنده . قال ابن العربى : «ما الذى يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٢٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٧٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٤٥ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٩ ص ٧٦ طبعة أولى أو ثانية .

ما شاء، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتى ضعفيه من شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أكرم على الله منه ؛ أو لا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيم الخُلّة وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد، فإذا أقسم بحياة لوط فحياة محمد أرفع . ولا يخرج من كلام إلى كلام لم يجر له ذكر لغير ضرورة » .

قلت : ما قاله حسن ؛ فإنه كان يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلى الله عليه وسلم كلاما معترضا فى قصة لوط . قال القشيرى أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم فى تفسيره : ويحتمل أن يقال : يرجع ذلك إلى قوم لوط، أى كانوا فى سكرتهم يعمهون . وقيل : لما وعظ لوط قومه وقال هؤلاء بناتى قالت الملائكة : يا لوط ، « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » ولا يدرون ما يحل بهم صباحا . فإن قيل : فقد أقسم تعالى بالتين والزيتون وطور سينين ؛ فما فى هذا ؟ قيل له : ما من شىء أقسم الله به إلا وذلك دلالة على فضله على ما يدخل فى عداده، فكذلك نبيّنا صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون أفضل ممن هو فى عداده . والعَمْر والعُمْر (بضم العين وفتحها) لغتان ومعناهما واحد؛ إلا أنه لا يستعمل فى القسم إلا بالفتح لكثرة الاستعمال . وتقول : عَمْرك الله، أى أسأل الله تعميرك . و « لَعَمْرُكَ » رفع بالابتداء وخبره محذوف . المعنى لعمرك مما أقسم به .

الثانيــة ــ كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمرى ؛ لأن معناه وحياتى . قال إبراهيم النَّخَعِىّ : يكره للرجل أن يقول لعمرى ؛ لأنه حلف بحياة نفسه، وذلك من كلام ضَعَفة الرجال . ونحو هذا قال مالك : إن المستضعفين من الرجال والمؤنثين يقسمون بحياتك وعَيْشك، وليس من كلام أهل الذُّكْران، وإن كان الله سبحانه أقسم به فى هذه القصة، فذلك بيان لشرف المنزلة والرفعة لمكانه ، فلا يحمل عليه سواه ولا يستعمل فى غيره . وقال ابن حبيب : ينبغى أن يُصرف « لعمرك » فى الكلام لهذه الآية . وقال قتادة : هو من كلام العرب . قال ابن العربى : وبه أقول ، لكن الشرع قد قطعه فى الاستعمال وردّ القسم إليه .

قلت : القسم بـ « لعمرك ولعمرى » ونحوه فى أشعار العرب وفصيح كلامها كثير .

قال النابغة .

لَعَمرى وما عَمْــرى علىّ بهيّن * لقد نُطقت بُطْـلا علىّ الأقارع[1]

آخــر :

لَعَمْرك إن الموت ما أخطا الفتى * لكالطوَل المُرْخى وثِنياه باليـد[2]

آخــر :

أيهـا المنكح الـثُّريا سُهيـلا * عَمْــرَكَ الله كيف يلتقيـان

آخــر :

إذا رَضيتْ علىّ بنو قشــير * لعَمْــرُ الله أعجبنى رضاهـا

وقال بعض أهل المعانى : لا يجوز هـذا ؛ لأنه لا يقال لله عمر ، وإنمـا هو تعالى أزلىّ .
ذكره الزهراوى .

الثالثــة — قــد مضى الكلام فيما يُحلف به وما لا يجوز الحلف به فى « المـائدة »[3]
وذكرنا هناك قول أحمد بن حنبل فيمن أقسم بالنبيّ صلى الله عليه وسلم لزمته الكفارة . قال ابن
خُوَيْزِمَنْداد : من جوّز الحلف بغير الله تعالى ممـا يجوز تعظيمه بحق من الحقوق فليس يقول
إنها يمين تتعلق بها كفارة ؛ إلا أنه من قصد الكذب كان ملوما ؛ لأنه فى الباطن مستخفّ بما
وجب عليه تعظيمه . قالوا : وقوله تعالى « لعمرك » أى وحياتك . وإذا أقسم الله تعـالى
بحياة نبيّه فإنمـا أراد بيان التصريح لنـا أنه يجوز لنـا أن نحلف بحياته . وعلى مذهب مالك
معنى قوله : « لعمرك » و « التّين والزّيتُونِ » « والطُّورِ . وكِتَابٍ مَسْطُورٍ » « والنَّجْمِ إذَا
هَوَى » « والشَّمْسِ وَضُحَاهَا » « لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ »
كل هذا معناه : وخالق التين والزيتون ، وبرب الكتاب المسطور ، وبرب البلد الذى حللت به ،
وخالق عيشك وحياتك ، وحق محمد ؛ فاليمين والقسم حاصل به سبحانه لا بالمخلوق . قال
ابن خُوَيْزِمَنْداد : ومن جوّز اليمين بغير الله تعالى تأوّل قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تحلفوا

(١) أراد بالأقارع بنى قريع بن عوف ، وكانوا قد وشوا به إلى النعمان . (٢) البيت لطرفة بن العبد .
والطول : الحبل . وثنياه : ما ثنى منه . (٣) راجع جـ ٦ ص ٢٦٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بآبائكم " وقال : إنما نهى عن الحلف بالآباء الكفار، ألا ترى أنه قال لما حلفوا بآبائهم : " للجبل عند الله أكرم من آبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية " . ومالك حمل الحديث على ظاهره . قال ابن خُوَيْزِمنداد : واستدل أيضا من جوّز ذلك بأن أيمان المسلمين جرت منذ عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا أن يحلفوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، حتى أن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا حاكم أحدهم صاحبَهُ قال : احلف لى بحق ما حواه هذا القبر، وبحق ساكن هذا القبر، يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكذلك بالحَرَم والمَشاعر العظام ، والرُّكن والمَقام والمحراب وما يُتلى فيه .

قوله تعالى : فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ نصب على الحال ، أى وقت شروق الشمس . يقال : أشرقت الشمس أى أضاءت ، وشَرَقت إذا طلعت . وقيل : هما لغتان بمعنًى . وأشرق القوم أى دخلوا فى وقت شروق الشمس . مثل أصبحوا وأمسوا ، وهو المراد فى الآية . وقيل : أراد شروق الفجر . وقيل : أوّل العذاب كان عند الصبح وامتدّ إلى شروق الشمس ، فكان تمام الهلاك عند ذلك . والله أعلم . و « الصيحة » العذاب . وتقدّم ذكر « سِجِّيل »[1] .

قوله تعالى : إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ روى الترمذيّ الحكيم فى (نوادر الأصول) من حديث أبى سعيد الخُدْرِيّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " للتفرسين " وهو قول مجاهد . وروى أبو عيسى الترمذيّ عن أبى سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله

(١) راجع ج ٩ ص ٨٨ طبعة أولى أو ثانية .

عليه وسلم : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله — ثم قرأ — « إن في ذلك لآيات للمتوسّمين » " . قال : هذا حديث غريب . وقال مقاتل وابن زيد : للمتوسمين للمتفكرين . الضحاك : للناظرين . قال الشاعر[1] :

أَوَ كلما وردَتْ عكاظَ قبيلةٌ * بعثوا إليّ عريفَهم يتوسم

وقال قتادة : للمعتبرين . قال زهير :

وفيهنّ مَلْهًى للصديق ومنظَرٌ * أنيقٌ لعينِ الناظرِ المتوسّمِ

وقال أبو عبيدة : للمتبصرين ، والمعنى متقارب . وروى الترمذيّ الحكيم من حديث ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لله عز وجل عبادا يعرفون الناس بالتوسُّم " . قال العلماء : التوسّم تفعّل من الوَسْم ، وهي العلامة التي يستدلّ بها على مطلوب غيرها . يقال : توسّمت فيه الخير إذا رأيت مِيسَم ذلك فيه ؛ ومنه قول عبد الله ابن رَوَاحة للنبيّ صلى الله عليه وسلم :

إني توسّمت فيك الخير أعرفه * والله يعلم أني ثابت البصر

آخر :

توسّمته لمّا رأيت مهابة * عليه وقلت المرء من آل هاشم

واتّسم الرجل إذا جعل لنفسه علامة يُعرف بها . وتوسّم الرجل طلب كلأ الوَسْميّ . وأنشد :

وأصبحن كالدَّوْم النواعِم غُدْوةً * على وِجْهةٍ من ظاعِنٍ متوسِّم

وقال ثعلب : الواسم الناظر إليك من فَرْقك إلى قدمك . وأصل التوسّم التثبت والتفكر ؛ مأخوذ من الوَسْم وهو التأثير بحديدة في جلد البعير وغيره ، وذلك يكون بجودة القريحة وحدّة الخاطر وصفاء الفكر . زاد غيره : وتفريغ القلب من حشو الدنيا ، وتطهيره من أدناس المعاصي وكدورة الأخلاق وفضول الدنيا . روى نَهْشَل عن ابن عباس « للتوسمين » قال : لأهل الصلاح والخير . وزعمت الصوفية أنها كرامة . وقيل : بل هي استدلال بالعلامات ،

---

(١) هو طريف بن تميم العنبري (عن شواهد سيبويه) .

ومن العلامات ما يبدو ظاهرا لكل أحد وبأول نظرة ، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل أحد ولا يدرك ببادئ النظر . قال الحسن : المتوسمون هم الذين يتوسمون الأمور فيعلمون أن الذى أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار ؛ فهذا من الدلائل الظاهرة . ومثله قول ابن عباس : ما سألنى أحد عن شيء إلا عرفت أفقيه هو أو غير فقيه . وروى عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما كانا بفناء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما : أراه نجارا، وقال الآخر : بل حدادا ، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال : كنت نجارا وأنا اليوم حداد . وروى عن جُنْدُب بن عبد الله البَجَلِيّ أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال : من سَمّع سَمّع الله به، ومن راءى راءى الله به . فقلنا له : كأنك عرّضت بهذا الرجل، فقال : إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غدا حَرُوريًّا ؛ فكان رأس الحَرُورية، واسمه مرداس . وروى عن الحسن البصرى أنه دخل عليه عمرو بن عبيد فقال : هذا سيد فتيان البصرة إن لم يُحدِث ، فكان من أمره من القدر ما كان، حتى هجره عامة إخوانه . وقال لأيوب : هذا سيد فتيان أهل البصرة، ولم يستثن . وروى عن الشَّعْبِيّ أنه قال لداود الأزدى وهو يُماريه : إنك لا تموت حتى تُكْوَى فى رأسك، وكان كذلك . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل عليه قوم من مَذْحِج فيهم الأشتر، فصعّد فيه النظر وصوّبه وقال : أيّهم هذا ؟ قالوا : مالك بن الحارث . فقال : ما له قاتله الله ! إنى لأرى للمسلمين منه يوما عصيبا ؛ فكان منه فى الفتنة ما كان . وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه : أن أنس بن مالك دخل عليه، وكان قد مَرّ بالسوق فنظر إلى امرأة، فلما نظر إليه قال عثمان : يدخل أحدكم علىّ وفى عينيه أثر الزنى ! فقال له أنس : أوَحْيًا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لا ! ولكن برهان وفراسة وصدق . ومثله كثير عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين .

الثانيـــة ــ قال أبو بكر بن العربى : «إذا ثبت أن التوسم والتفرس من مدارك المعانى فإن ذلك لا يترتب عليـه حكم ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرس . وقـد كان قاضى القضاة الشامى المالكى ببغداد أيام كونى بالشام يحكم بالفراسة فى الأحكام، جَرْيًا على طريق إياس

ابن معاوية أيام كان قاضيا، وكان شيخنا فخر الإسلام أبو بكر الشاشي صنف جزءا في الرد عليه ، كتبه لي بخطه وأعطانيه ، وذلك صحيح ؛ فإن مدارك الأحكام معلومة شرعا مدركة قطعا وليست الفراسة منها .

قوله تعالى : وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ يعني قرى قوم لوط . ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴾ أي على طريق قومك يا محمد إلى الشام . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لعبرة للمصدّقين . ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ يريد قوم شعيب ، كانوا أصحاب غياض ورياض وشجر مثمر . والأيكة : الغيضة ، وهي جماعة الشجر، والجمع الأيك . ويروى أن شجرهم كان دوما وهو المقل . قال النابغة :

تجلو بقادمتي حمامة أيكة * بردا أسف لثاته بالإثمد

وقيل : الأيكة اسم القرية . وقيل اسم البلدة . وقال أبو عبيدة : الأيكة وليكة مدينتهم بمنزلة بكة من مكة . وتقدم خبر شعيب وقومه . ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ أي بطريق واضح في نفسه، يعني مدينة قوم لوط وبقعة أصحاب الأيكة يعتبر بهما من يمر عليهما .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾

الحجر ينطلق على معان : منها حجر الكعبة . ومنها الحرام ؛ قال الله تعالى : «وحجرا محجورا»[(١)] أي حراما محرما . والحجر العقل ؛ قال الله تعالى : «لذي حجر»[(٢)] والحجر حجر القميص ؛ والفتح أفصح . والحجر الفرس الأنثى . والحجر ديار ثمود ، وهو المراد هنا ، أي المدينة ؛

---

(١) آية ٥٣ سورة الفرقان . (٢) آية ٥ سورة الفجر .

قاله الأزهرىّ . قتادة : وهى ما بين مكة وتبوك، وهو الوادى الذى فيه ثمود . الطبرىّ : هى أرض بين الحجاز والشام، وهم قوم صالح . وقال : ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهو صالح وحده؛ ولكن من كذّب نبيًّا فقد كذّب الأنبياء كلهم؛ لأنهم على دين واحد فى الأصول فلا يجوز التفريق بينهم . وقيل : كذبوا صالحا ومَن تبعه ومن تقدّمه من النبيّين أيضا . والله أعلم . روى البخارىّ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر فى غزوة تبوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها . فقالوا : قد عجّنّا واستقينا . فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُهَرِيقوا الماء وأن يطرحوا ذلك العجين . وفى الصحيح عن ابن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُهَرِيقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى تَرِدها الناقة . وروى أيضا عن ابن عمر قال : مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حَذَراً أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم" ثم زجر[1] فأسرع .

قلت : ففى هذه الآية التى بين الشارع حكمها وأوضح أمرها ثمان مسائل، استنبطها العلماء واختلف فى بعضها الفقهاء، فأولها — كراهة دخول تلك المواضع، وعليها حمل بعض العلماء دخول مقابر الكفار؛ فإن دخل الإنسان شيئا من تلك المواضع والمقابر فعلى الصفة التى أرشد إليها النبىّ صلى الله عليه وسلم من الاعتبار والخوف والإسراع . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تدخلوا أرض بابلَ فإنها ملعونة" .

مسألة : أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بهرق ما استقوا من بئر ثمود وإلقاء ما عجن وخبز به لأجل أنه ماء سخط، فلم يجز الانتفاع به فرارا من سخط الله . وقال "اعلفوه الإبل" .

---

(١) أى زجر صلى الله عليه وسلم ناقته .

قلت : وهكذا حكم الماء النجس وما يعجن به . وثانيها — قال مالك : إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلفه الإبل والبهائم ؛ إذ لا تكليف عليها ؛ وكذلك قال في العسل النجس : إنه يعلفه النحل . وثالثها — أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلف ما عجن بهذا الماء الإبل، ولم يأمر بطرحه كما أمر في لحوم الحُمُر الإنسية يوم خيبر؛ فدلّ على أن لحم الحُمُر أشد في التحريم وأغلظ في التنجيس . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكسب الحجام أن يُعلف الناضح(١) والرقيق ، ولم يكن ذلك لتحريم ولا تنجيس . قال الشافعيّ : ولو كان حراما لم يأمره أن يُطعِمَه رقيقَه ؛ لأنه متعبّد فيه كما تعبّد في نفسه . ورابعها — في أمره صلى الله عليه وسلم بعلف الإبل العجين دليل على جواز حمل الرجل النجاسة إلى كلابه ليأكلوها ؛ خلافا لمن منع ذلك من أصحابنا وقال : تطلق الكلاب عليها ولا يحملها إليهم . وخامسها — أمره صلى الله عليه وسلم أن يستقوا من بئر الناقة دليل على التبرك بآثار الأنبياء والصالحين ، وإن تقادمت أعصارهم وخفيت آثارهم؛ كما أن في الأول دليلا على بغض أهل الفساد وذم ديارهم وآثارهم . هذا، وإن كان التحقيق أن الجمادات غير مؤاخذات، لكن المقرون بالمحبوب محبوب، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض ؛ كما قال كُثَيِّر :

أحب لحبها السودان حتى * أحبّ لحبها سود الكلاب

وكما قال آخر :

أمرّ على الديار ديارِ ليلى * أقبّل ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما تلك الديارُ(٢) شغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا

وسادسها — منع بعض العلماء الصلاة بهذا الموضع وقال : لا تجوز الصلاة فيها لأنها دار سخط وبقعة غضب . قال ابن العربيّ : فصارت هذه البقعة مستثناة من قوله صلى الله عليه وسلم : "جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا" فلا يجوز التيمم بترابها ولا الوضوء من مائها ولا الصلاة

---

(١) الناضح : البعير يستقى عليه . (٢) الرواية المشهورة : «وما حب الديار» . والبيتان لمجنون ليلى . (راجع خزانة الأدب في الشاهد التسعين بعد المائتين) .

فيها . وقد روى الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلى فى سبع مواطن : فى المزبلة والمجزرة والمقبرة وقارعة الطريق، وفى الحمام وفى معاطن الإبل وفوق بيت الله . وفى الباب عن أبى مرثد وجابر وأنس : حديث ابن عمر إسناده ليس بذاك القوى ، وقد تُكُلِّم فى زيد بن جبيرة من قِبَل حفظه . وقد زاد علماؤنا : الدار المغصوبة والكنيسة والبيعة والبيت الذى فيه تماثيل ، والأرض المغصوبة أو موضعا تستقبل فيه نائما أو وجه رجل أو جدارا عليه نجاسة . قال ابن العربى : ومن هذه المواضع ما مُنع لحق الغير، ومنه ما مُنع لحق الله تعالى، ومنه ما منع لأجل النجاسة المحققة أو لغلبتها ؛ فما منع لأجل النجاسة إن فرش فيه ثوب طاهر كالحمام والمقبرة فيها أو إليها فإن ذلك جائز فى المدونة . وذكر أبو مصعب عنه الكراهة . وفرق علماؤنا بين المقبرة القديمة والجديدة لأجل النجاسة ، وبين مقبرة المسلمين والمشركين ؛ لأنها دار عذاب وبقعة سخط كالحجر . وقال مالك فى المجموعة : لا يُصلَّى فى أعطان الإبل وإن فرش ثوبا ؛ كأنه رأى لها علتين : الاستتار بها ونفارها[1] فتفسد على المصلى صلاته ؛ فإن كانت واحدة[2] فلا بأس ؛ كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعل ؛ فى الحديث الصحيح . وقال مالك : لا يصلى على بساط فيه تماثيل إلا من ضرورة . وكره ابن القاسم الصلاة إلى القبلة فيها تماثيل ، وفى الدار المغصوبة ، فإن فعل أجزأه . وذكر بعضهم عن مالك أن الصلاة فى الدار المغصوبة لا تجزى . قال ابن العربى : وذلك عندى بخلاف الأرض ؛ فإن الدار لا تدخل إلا بإذن ، والأرض وإن كانت ملكا فإن المسجدية فيها قائمة لا يبطلها الملك .

قلت : الصحيح ـ إن شاء الله ـ الذى يدل عليه النظر والخبر أن الصلاة بكل موضع طاهر جائزة صحيحة . وما روى من قوله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا وادٍ به شيطان " وقد رواه معمر عن الزهرى فقال : واخرجوا عن الموضع الذى أصابتكم فيه الغفلة . وقول علىّ : نهانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أصلى بأرض بابل فإنها ملعونة . وقوله عليه

---

(١) فى الموطأ : « لأنها يستتر بها للبول والغائط ؛ فلا تكاد تسلم مباركها من النجاسة » .
(٢) أى ناقة واحدة .

السلام حين مرّ بالحجر من ثمود : " لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين "
ونهيه عن الصلاة فى معاطن الإبل إلى غير ذلك مما فى هذا الباب، فإنه مردود إلى الأصول
المجتمع عليها والدلائل الصحيح مجيئها . قال الإمام الحافظ أبو عمر : المختار عندنا فى هذا
الباب أن ذلك الوادى وغيره من بقاع الأرض جائز أن يصلى فيها كلها ما لم تكن فيها نجاسة
متيقّنة تمنع من ذلك ، ولا معنى لاعتلال من آعتل بأن موضع النوم عن الصلاة موضع
شيطان، وموضع ملعون لا يجب أن تقام فيه الصلاة، وكل ماروى فى هذا الباب من النهى
عن الصلاة فى المقبرة وبأرض بابل وأعطان الإبل وغير ذلك مما فى هذا المعنى، كل ذلك
عندنا منسوخ ومدفوع لعموم قوله صلى الله عليه وسلم : " جُعلت لى الأرض كلها مسجدا
وطهورا " ، وقوله صلى الله عليه وسلم مخبرا : إن ذلك من فضائله ومما خُصّ به، وفضائله
عند أهل العلم لا يجوز عليها النسخ ولا التبديل ولا النقص . قال صلى الله عليه وسلم :
" أوتيت خمسا — وقد روى ستا ، وقد روى ثلاثا وأربعا ، وهى تنتهى إلى أزيد
من تسع ، قال فيهن — " لم يؤتهن أحد قبلى بُعثت إلى الأحمر والأسود ونُصرت بالرُّعب
وجُعلت أمتى خير الأمم وأحلّت لى الغنائم وجُعلت لىَ الأرض مسجدا وطهورا وأوتيت
الشفاعة وبعثت بجوامع الكلم وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح الأرض فوضعت فى يدى وأعطيت
الكوثر وختم بى النبيون " رواها جماعة من الصحابة . وبعضهم يذكر بعضها ، ويذكر بعضهم
ما لم يذكر غيره، وهى صحاح كلها . وجائز على فضائله الزيادة وغير جائز فيها النقصان؛ ألا ترى
أنه كان عبدا قبل أن يكون نبيًّا ثم كان نبيًّا قبل أن يكون رسولا ؛ وكذلك روى عنه ، وقال :
" ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم " ثم نزلت « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »(1) .
وسمع رجلا يقوله : يا خير البرية ، فقال : " ذاك إبراهيم " وقال : " لا يقولن أحدكم
أنا خير من يونس بن متّى " وقال : " السيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم
السلام " ثم قال بعد ذلك كله : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " . ففضائله صلى الله عليه وسلم لم تزل

(1) آية ٢ سورة الفتح .

تزداد إلى أن قبضه الله ؛ فمن هاهنا قلنا : إنه لا يجوز عليها النسخ ولا الاستثناء ولا النقصان ، وجائز فيها الزيادة . وبقوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا " أجزنا الصلاة فى المقبرة والحمام وفى كل موضع من الأرض إذا كان طاهرا من الأنجاس . وقال صلى الله عليه وسلم لأبى ذر : " حيثما أدركتك الصلاةُ فصلّ فإن الأرض كلها مسجد " ذكره البخارىّ ولم يخص موضعا من موضع . وأما من احتج بحديث ابن وهب قال : أخبرنى يحيى بن أيوب عن زيد بن جَبيرة عن داود بن حصين عن نافع عن ابن عمر حديث الترمذىّ الذى ذكرناه فهو حديث انفرد به زيد بن جَبيرة وأنكروه عليه ، ولا يعرف هذا الحديث مسندا إلا برواية يحيى بن أيوب عن زيد بن جَبيرة . وقد كتب الليث بن سعد إلى عبد الله بن نافع مولى ابن عمر يسأله عن هذا الحديث ، وكتب إليه عبد الله بن نافع لا أعلم من حدّث بهذا عن نافع إلا قد قال عليه الباطل . ذكره الحُلْوانى عن سعيد بن أبى مريم عن الليث ؛ وليس فيه تخصيص مقبرة المشركين من غيرها . وقد رُوى عن علىّ بن أبى طالب قال : نهانى حبيبى صلى الله عليه وسلم أن أصلى فى المقبرة ، ونهانى أن أصلى فى أرض بابل فإنها ملعونة . وإسناده ضعيف مجتمع على ضعفه ، وأبو صالح الذى رواه عن علىّ هو سعيد ابن عبد الرحمن الغفارىّ ، بصرىّ ليس بمشهور ولا يصح له سماع عن علىّ ، ومَن دونه مجهولون لا يُعرفون . قال أبو عمر : وفى الباب عن علىّ من قوله غير مرفوع حديثٌ حسن الإسناد ، رواه الفضل بن دُكين قال : حدثنا المغيرة بن أبى الحُرّ الكِنْدىّ قال حدثنى أبو العَنْبس حُجر بن عنبس قال : خرجنا مع علىّ إلى الحرورية ، فلما جاوزنا سوريا وقع بأرض بابل ، قلنا : يا أمير المؤمنين أمسيتَ ، الصلاةَ الصلاةَ ؛ فأبى أن يكلم أحدا . قالوا : يا أمير المؤمنين ، قد أمسيت . قال بلى ، ولكن لا أصلى فى أرض خسف الله بها . والمغيرة بن أبى الحُرّ كوفى ثقة ؛ قاله يحيى بن مَعين وغيره . وحُجر بن عنبس من كبار أصحاب علىّ . وروى الترمذىّ عن أبى سعيد الخُدرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأرض كلّها مسجد إلا المقبرةَ والحمام " . قال الترمذىّ : رواه سفيان الثورىّ عن عمرو بن

يحيى عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مُرْسَلا، وكأنه أثبت وأصح . قال أبو عمر : فسقط الاحتجاج به عند من لا يرى المرسل حجة؛ ولو ثبت كان الوجه ما ذكرنا . ولسنا نقول كما قال بعض المنتحلين لمذهب المدنيين : إن المقبرة في هذا الحديث وغيره أريد بها مقبرة المشركين خاصة؛ فإنه قال : المقبرة والحمام بالألف واللام؛ فغير جائز أن يُرَدّ ذلك إلى مقبرة دون مقبرة أو حمام دون حمام بغير توقيف عليه ، فهو قول لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا خبر صحيح، ولا مدخل له في القياس ولا في المعقول، ولا دلّ عليه فحوى الخطاب ولا خرج عليه الخبر . ولا يخلو تخصيص من خص مقبرة المشركين من أحد وجهين : إما أن يكون من أجل اختلاف الكفار إليها بأقدامهم فلا معنى لخصوص المقبرة بالذكر؛ لأن كل موضع هم فيه بأجسامهم وأقدامهم فهو كذلك ، وقد جلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم بما لا معنى له . أو يكون من أجل أنها بقعة سخط ، فلو كان كذلك ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبني مسجده في مقبرة المشركين وينبشها ويسويها ويبني عليها ، ولو جاز لقائل أن يخص من المقابر مقبرة للصلاة فيها لكانت مقبرة المشركين أولى بالخصوص والاستثناء من أجل هذا الحديث . وكل من كره الصلاة في المقبرة لم يخص مقبرة من مقبرة؛ لأن الألف واللام إشارة إلى الجنس لا إلى معهود ، ولو كان بين مقبرة المسلمين والمشركين فرق لبيّنه صلى الله عليه وسلم ولم يهمله؛ لأنه بعث مبيّنًا . ولو ساغ لجاهل أن يقول : مقبرةُ كذا لجاز لآخر أن يقول : حمام كذا؛ لأن في الحديث المقبرة والحمام . وكذلك قوله : المزبلة والمجزرة؛ غيرُ جائز أن يقال : مزبلة كذا ولا مجزرة كذا ولا طريق كذا؛ لأن التحكم في دين الله غير جائز .

وأجمع العلماء على أن التيمم على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طيبا طاهرا نظيفا جائز . وكذلك أجمعوا على أن من صلى في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر، أن صلاته ماضية جائزة . وقد تقدّم هذا في سورة «براءة»(1) . ومعلوم أن الكنيسة أقرب إلى أن تكون بقعة سخط من المقبرة؛

---

(1) راجع جـ ٨ ص ٢٥٥ طبعة أولى أو ثانية .

لأنها بقعة يعصى الله و يكفر به فيها ، وليس كذلك المقبرة . وقد وردت السنة باتخاذ البيع والكنائس مساجد . روى النسائى عن طلق بن علىّ قال : خرجنا وفدًا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فبايعناه وصلينا معه، وأخبرناه أن بأرضنا بيعة لنا ، وذكر الحديث . وفيه : " فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بيعتكم واتخذوها مسجدا " . وذكر أبو داود عن عثمان بن أبى العاص أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم . وقد تقدّم فى « براءة » . وحسبك بمسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم الذى أسّس على التقوى مبنيا فى مقبرة المشركين ؛ وهو حجة على كل من كره الصلاة فيها . وممن كره الصلاة فى المقبرة سواء كانت لمسلمين أو مشركين الثورىّ وأبو حنيفة والأوزاعىّ والشافعىّ وأصحابهم . وعند الثورىّ لا يعيد . وعند الشافعىّ أجزأه إذا صلى فى المقبرة فى موضع ليس فيه نجاسة؛ للأحاديث المعلومة فى ذلك، ولحديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صلوا فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا " ، ولحديث أبى مَرْثَد الغَنَوِىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها " . وهذان حديثان ثابتان من جهة الإسناد ، ولا حجة فيهما ؛ لأنهما محتملان للتأويل، ولا يجب أن يمتنع من الصلاة فى كل موضع طاهر إلا بدليل لا يحتمل تأويلا . ولم يفرق أحد من فقهاء المسلمين بين مقبرة المسلمين والمشركين إلا ما حكيناه من خَطَل القول الذى لا يُشتغل بمثله ، ولا وجه له فى نظر ولا فى صحيح أثر .

وثامنها[(١)] ــ الحائط يلقى فيه النَّتْن والعَذِرة ليكرم فلا يصلّى فيه حتى يُسقى ثلاث مرات ، لما رواه الدارقطنى عن مجاهد عن ابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الحائط يُلقى فيه العَذِرة والنَّتْن قال : " إذا سُقِىَ ثلاث مرات فصلّ فيه " . وخرجه أيضا من حديث نافع عن ابن عمر أنه سئل عن هذه الحيطان التى تلقى فيها العَذِرات وهذا الزبل ، أيصلّى فيها ؟ فقال : إذا سقيت ثلاث مرات فصلّ فيها . رُفع ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم . اختلفا فى الإسناد ، والله أعلم .

---

(١) كذا فى الأصول . ويلاحظ أنه لم يتقدم للسابعة ذكر .

قوله تعالى : وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ﴾ أى بآياتنا . كقوله : « آتِنَا غَدَاءَنَا »(١) أى بغدائنا . والمراد الناقة ، وكان فيها آيات جمّة : خروجها من الصخرة ، ودنوّ نتاجها عند خروجها ، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة ، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعا . ويحتمل أنه كان لصالح آيات أخر سوى الناقة ، كالبئر وغيره . ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أى لم يعتبروا .

قوله تعالى : وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

النحت فى كلام العرب : البَرْىُ والنَّجر . نحته ينحته (بالكسر) نحتا أى براه . والنُّحاتة البُراية . والمِنحت ما يُنحت به . وفى التنزيل « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ »(٢) أى تنجرون وتصنعون . فكانوا يتخذون من الجبال بيوتا لأنفسهم بشدة قوتهم . ﴿ آمِنِينَ ﴾ أى من أن تسقط عليهم أو تخرب . وقيل : آمنين من الموت . وقيل : من العذاب . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ أى فى وقت الصبح ، وهو نصب على الحال . وقد تقدم ذكر الصيحة فى هود والأعراف(٣) . ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأموال والحصون فى الجبال ، ولا ما أعطوه من القوة .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

(١) آية ٦٢ سورة الكهف . (٢) آية ٩٥ سورة الصافات .
(٣) راجع جـ ٩ ص ٦١ و جـ ٧ ص ٢٤٢ طبعة أولى وثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي للزوال والفناء . وقيل : أي لأجازي المحسن والمسيء ؛ كما قال : « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » [1] . ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ أي الكائنة فيجزى كل بعمله . ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ مثل « وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا » [2] أي تجاوز عنهم يا محمد ، واعف عفوًا حسنا ؛ ثم نسخ بالسيف . قال قتادة : نسخه قوله : « فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ » [3] . وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : "لقد جئتكم بالذبح وبعثت بالحصاد ولم أبعث بالزراعة" [4] ؛ قاله عكرمة ومجاهد . وقيل : ليس بمنسوخ ، وأنه أمر بالصفح في حق نفسه فيما بينه وبينهم . والصفح : الإعراض ؛ عن الحسن وغيره . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ ﴾ أي المقتدر للخلق والاخلاق [5] . ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأهل الوفاق والنفاق .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

اختلف العلماء في السبع المثاني ؛ فقيل : الفاتحة ؛ قاله علي بن أبي طالب وأبو هريرة والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة ، من حديث أبي بن كعب وأبي سعيد بن المعلى [6] . وقد تقدم في تفسير الفاتحة . وخرج الترمذي عن حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني" . قال : هذا حديث حسن صحيح . وهذا نص ، وقد تقدم في الفاتحة . وقال الشاعر :

نشدتكم بمنزل القرآن * أم الكتاب السبع من مثاني

وقال ابن عباس : هي السبع الطول : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال والتوبة معا ؛ إذ ليس بينهما التسمية . روى النسائي

---

(١) آية ٣١ سورة النجم . (٢) آية ١٠ سورة المزمل . (٣) آية ٩١ سورة النساء .
(٤) كذا في الأصول وتفسير الطبري . وفي كتاب الجامع الصغير : «بالجهاد» . (٥) كذا في الأصول .
(٦) راجع ج ١ ص ١٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة

حدثنا على بن حُجْر أخبرنا شريك عن أبى إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله عز وجل : ﴿ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي ﴾ قال : السبع الطُّوَل، وسميت مثانى لأن العبر والأحكام والحدود ثُنِّيت فيها . وأنكر قوم هذا وقالوا : أنزلت هذه الآية بمكة ، ولم ينزل من الطُّوَل شئ إذ ذاك . وأجيب بأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ثم أنزله منها نجوما، فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنما آتاه محمدا صلى الله عليه وسلم و إن لم ينزل عليه بعد . وممن قال إنها السبع الطول : عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد . وقال جرير :

جزى الله الفرزدق حين يُمْسى * مُضيعا للفصل والمثانى

وقيل : المثانى القرآن كله؛ قال الله تعالى : « كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ »[1] . هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك، وقاله ابن عباس . وقيل له مثانى لأن الأنباء والقصص ثُنِّيت فيه . وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فقد كان نورا ساطعا يهتدى به * يُخَصُّ بتنزيل القُرآن المعظم

أى القرآن . وقيل : المراد بالسبع المثانى أقسام القرآن من الأمر والنهى والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعديد نِعَم وأنباء قرون؛ قاله زياد بن أبى مريم . والصحيح الأول لأنه نص . وقد قدمنا فى الفاتحة أنه ليس فى تسميتها بالمثانى ما يمنع من تسمية غيرها بذلك؛ إلا أنه إذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وثبت عنه نص فى شئ لا يحتمل التأويل كان الوقوف عنده .

قوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ فيه إضمار تقديره : وهو أن الفاتحة القرآن العظيم لاشتمالها على ما يتعلق بأصول الإسلام . وقد تقدم فى الفاتحة . وقيل : الواو مقحمة ، التقدير : ولقد آتيناك سبعا من المثانى القرآن العظيم . ومنه قول الشاعر :

إلى المَلِك القَرم وابن الهمام * وليثِ الكَتيبة فى المُزْدَحَم

وقد تقدم عند قوله : « حافظوا على الصلوات والصلاةِ الوسطى »[2] .

---

(1) آية ٢٣ سورة الزمر . (2) راجع جـ ٣ ص ٢١٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

فيــه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ المعنى : قد أغنيتك بالقرآن عما فى أيدى الناس ؛ فإنه ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن ؛ أى ليس منا من رأى أنه ليس يغنَى بما عنده من القرآن حتى يطمح بصره إلى زخارف الدنيا وعنده معارف المولى . يقال : إنه وافى سبع قوافل من بُصْرَى وأَذْرِعات ليهود قُرَيظة والنَّضير فى يوم واحد ، فيها البُرّ والطيب والجوهر وأمتعة البحر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى سبيل الله ؛ فأنزل الله تعالى « ولقد آتيناك سبعا من المثانى » أى فهى خير لكم من القوافل السبع ؛ فلا تمدّن أعينكم إليها . وإلى هذا صار ابن عُيينة ، وأورد قوله عليه السلام : " ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن " أى من لم يستغن به . وقد تقدّم هــذا المعنى فى أوّل الكتاب[(١)] . ومعنى ﴿ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ أى أمثالا فى النعم ؛ أى الأغنياء بعضهم أمثال بعض فى الغنى ، فهم أزواج .

الثانيــة ــ هــذه الآية تقتضى الزجر عن التشوف إلى متاع الدنيا على الدوام ، وإقبال العبــد على عبادة مولاه . ومثله « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ[(٢)] » الآية . وليس كذلك ؛ فإنه روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " حُبّب إلىّ من دنياكم النساء والطيب وجُعلت قُرّة عينى فى الصلاة[(٣)] " . وكان عليــه الصلاة والسـلام يتشاغل بالنساء ، جِبِلّة الآدمية وتشوّف الخلقة الإنسانية ، ويحافظ على الطيب ، ولا تقرّ له عين إلا فى الصلاة لدى مناجاة المولى . ويرى أن مناجاته أحرى من ذلك وأولى . ولم يكن فى دين محمد الرهبانية والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلية كما كان فى دين عيسى ؛

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ١٣١ سورة طه . (٣) كذا فى سنن النسائى ومسند الامام أحمد . والذى فى الأصول : « حبب إلى من دنياكم ثلاث ــ الخ » وبكلمة « ثلاث » لا يستقيم الكلام .

وإنما شرع الله سبحانه حنيفية سمحة خالصة عن الحرج خفيفة على الآدمي ، يأخذ من الآدمية بشهواتها ويرجع إلى الله بقلب سليم . ورأى القراء والمخلصون من الفضلاء الانكفاف عن اللذات والخلوص لرب الأرض والسموات اليوم أولى؛ لما غلب على الدنيا من الحرام ، واضطرّ العبد في المعاش إلى مخالطة من لا تجوز مخالطته ومصانعة من تحرم مصانعته ، فكانت القراءة أفضل ، والفرار عن الدنيا أصوب للعبد وأعدل؛ قال صلى الله عليه وسلم : " يأتي على الناس زمان يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شَعَف(١) الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن " .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا . وقيل : المعنى لا تحزن على ما مُتِّعوا به في الدنيا فلك في الآخرة أفضلُ منه . وقيل : لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل العذاب . ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ألِنْ جانبك لمن آمن بك وتواضَعْ لهم . وأصله أن الطائر إذا ضمّ فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ ، فجعل ذلك وصفا لتقريب الإنسان أتباعه . ويقال : فلان خافض الجناح ، أي وقور ساكن . والجناحان من ابن آدم جانباه ؛ ومنه « وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ(٢) » وجناح الطائر يده . وقال الشاعر :

وحسبك فتية لزعيم قوم * يمدّ على أخي سقم جناحا

أي تواضعا ولينا .

قوله تعالى : وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

في الكلام حذف؛ أي إني أنا النذير المبين عذابا، فحذف المفعول ، إذ كان الإنذار يدل عليه، كما قال في موضع آخر : « أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ(٣) » . وقيل : الكاف زائدة، أي أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين؛ كقوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » . وقيل : أنذرتكم

(١) أي رءوسها . (٢) آية ٢٢ سورة طه . (٣) آية ١٣ سورة فصلت .

مثل ما أنزلنا بالمقتسمين . وقيل : المعنى كما أنزلنا على المقتسمين ، أى من العذاب وكفيناك المستهزئين ، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين الذين بغوا ، فإنا كفيناك أولئك الرؤساء الذين كنت تلقى منهم ما تلقى .

واختلف فى « الْمُقْتَسِمِينَ » على أقوال سبعة : الأول ــ قال مقاتل والفراء : هم ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا أعقاب مكة وأنقابها وفجاجها يقولون لمن سلكها : لا تغترّوا بهذا الخارج فينا يدّعى النبوة ؛ فإنه مجنون ، وربما قالوا ساحر ، وربما قالوا شاعر ، وربما قالوا كاهن . وسُمّوا المقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق ، فأماتهم الله شرّ ميتة ، وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حَكَمًا على باب المسجد ، فإذا سألوه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : صدق أولئك . الثانى ــ قال قتادة : هم قوم من كفار قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعرا ، وبعضه سحرا ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين . الثالث ــ قال ابن عباس : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . وكذلك قال عكرمة : هم أهل الكتاب ، وسُمّوا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين ، فيقول بعضهم : هذه السورة لى وهذه السورة لك . وهو القول الرابع . الخامس ــ قال قتادة : قسموا كتابهم ففرقوه وبددوه وحرّفوه . السادس ــ قال زيد بن أسلم : المراد قوم صالح ، تقاسموا على قتله فسُمّوا مقتسمين ؛ كما قال تعالى : « تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ »(1) . السابع ــ قال الأخفش : هم قوم اقتسموا أيمانا تحالفوا عليها . وقيل : إنهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البَخْتَرىّ بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ومنبه ابن الحجاج ؛ ذكره الماوردىّ .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

هذه صفة المقتسمين . وقيل : هو مبتدأ وخبره « لنسألنهم » . وواحد العِضين عِضة ، من عضّيت الشىء تعضية أى فرّقته ؛ وكل فرقة عِضة . وقال بعضهم : كانت فى الأصل

(1) آية ٤٩ سورة النمل .

عِضْيوة فنقصت الواو ، ولذلك جمعت عضين؛ كما قالوا : عِزِين في جمع عِزة، والأصل عِزْوة . وكذلك ثُبَة وثبين . ويرجع المعنى إلى ما ذكرناه في المقتسمين . قال ابن عباس : آمنوا ببعض وكفروا ببعض . وقيل : فرّقوا أقاويلهم فيه فجعلوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا . عضوته أي فرقته . قال الشاعر — هو رؤبة — :

* وليس دين الله بالمُعَضَّى *

أي بالمفرّق . ويقال : نقصانه الهاء وأصله عِضْهة ؛ لأن العِضَه والعِضين في لغة قريش السحر . وهم يقولون للساحر : عاضِه وللساحرة عاضِهة . قال الشاعر :

أعوذ بربي من النافثا ... ت في عُقَد العاضه المُعْضِه

وفي الحديث : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضِهة والمُسْتَعْضِهة، وفُسّر : الساحرة والمستسحرة . والمعنى : أكثروا البُهْت على القرآن ونوّعوا الكذب فيه، فقالوا : سحر وأساطير الأولين، وأنه مفترًى، إلى غير ذلك . ونظير عِضة في النقصان شَفه، والأصل شَفَهة . كما قالوا : سَنة، والأصل سَنَهة ، فنقصوا الهاء الأصلية وأثبتت هاء العلامة وهي للتأنيث . وقيل : هو من العَضْه وهي النميمة . والعَضِيهة البهتان ، وهو أن يعضَه الإنسان ويقول فيه ما ليس فيه . يقال عَضَهه عَضْهاً رماه بالبهتان . وقد أعْضَهت أي جئت بالبهتان . قال الكسائي : العِضَة الكذب والبهتان ، وجمعها عِضون؛ مثل عِزة وعِزون ؛ قال تعالى : « الذين جعلوا القرآن عِضين » . ويقال : عَضَوه أي آمنوا بما أحبوا منه وكفروا بالباقي، فأحبط كفرهم إيمانَهم . وكان الفراء يذهب إلى أنه مأخوذ من العِضاة ، وهي شجر الوادي ويخرج كالشوك .

قوله تعالى : فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي لنسئلن هؤلاء الذين جرى ذكرهم عما عملوا في الدنيا . وفي البخاري : وقال عدة من أهل العلم في قوله : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » عن لا إله إلا الله .

قلت : وهذا قد روى مرفوعا ، روى الترمذىّ الحكيم قال : حدثنا الجارود بن معاذ قال حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير بن نَهيك عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » قال : " عن قول لا إله إلا الله " قال أبو عبد الله : معناه عندنا عن صدق لا إله إلا الله ووفائها ؛ وذلك أن الله تعالى ذكر فى تنزيله العمل فقال : « عما كانوا يعملون » ولم يقل عما كانوا يقولون، وإن كان قد يجوز أن يكون القول أيضا عمل اللسان، فإنما المعنىّ به ما يعرفه أهل اللغة أن القول قولٌ والعملَ عملٌ . وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " عن لا إله إلا الله " أى عن الوفاء بها والصدق لمقالها . كما قال الحسن البصرىّ : ليس الإيمان بالتحلّى ولا الدين بالتمنى ولكن ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال . ولهذا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة " قيل : يارسول الله ، وما إخلاصها ؟ قال : " أن تحجُزه عن محارم الله " . رواه زيد بن أرقم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عهد إلىّ ألا يأتينى أحد من أمتى بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئا إلا وَجَبت له الجنة " قالوا : يا رسول الله ، وما الذى يخلط بلاإله إلا الله ؟ قال : " حرصا على الدنيا وجَمْعا لها ومنعا لها ، يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة " . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا لا إله إلا الله رُدّت عليهم وقال الله كذبتم " . أسانيدها فى نوادر الأصول .

قلت : والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافرهم ومؤمنهم ، إلا من دخل الجنة بغير حساب على ما بيناه فى كتاب (التذكرة) . فإن قيل : وهل يسأل الكافر ويحاسب؟ قلنا : فيه خلاف، وذكرناه فى التذكرة . والذى يظهر سؤاله ، للآية وقوله : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسْئُولُونَ »[1] وقوله : « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ »[2] . فإن قيل : فقد قال تعالى :

(١) آية ٢٤ سورة الصافات . (٢) آية ٢٥ سورة الغاشية .

« وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »[(1)] وقال : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ »[(2)]، وقال : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ »[(3)]، وقال : « إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ »[(4)]. قلنا : القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك فيه . قال عكرمة : القيامة مواطن، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها . وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا؛ لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لهم : لِمَ عصيتم القرآن وما حجتكم فيه؟ واعتمد قُطْرُب هذا القول . وقيل : « لنسألنهم أجمعين » يعني المؤمنين المكلفين؛ بيانه قوله تعالى : « ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ »[(5)] . والقول بالعموم أولى كما ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أي بالذي تؤمر به، أي بلّغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم، فقد أمرك الله بذلك . والصدع : الشق . وتصدّع القوم أي تفرقوا؛ ومنه « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ »[(6)] أي يتفرقون . وصدعته فانصدع أي انشق . وأصل الصدع الفرق والشق . قال أبو ذُؤَيب يصف الحمار وأُتُنَه :

وكأنهن رِبَابة وكأنه يَسَرٌ * يُفِيض على القِداح ويَصْدَع[(7)]

أي يفرق ويشق . فقوله : « اصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » قال الفراء : أراد فاصدع بالأمر، أي أظهر دينك؛ فـ« ما » مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر. وقال ابن الأعرابي : معنى اصدع بما تؤمر، أي اقصد . وقيل : « فاصدع بما تؤمر » أي فرّق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرقون بأن يجيب البعض؛ فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفار.

---

(1) آية ٧٨ سورة القصص . (2) آية ٣٩ سورة الرحمن . (3) آية ١٧٤ سورة البقرة .
(4) آية ١٥ سورة المطففين . (5) آخر سورة التكاثر . (6) آية ٤٣ سورة الروم .
(7) الربابة : الجلدة التي تجمع فيها السهام . واليسر : صاحب الميسر الذي يضرب بالقداح .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالاة بقولهم، فقد برأك الله عما يقولون . وقال ابن عباس : هو منسوخ بقوله « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ » (١) . وقال عبد الله بن عبيد : ما زال النبيّ صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزل قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر » فخرج هو وأصحابه . وقال مجاهد : أراد الجهر بالقرآن فى الصلاة . « وأعرض عن المشركين » لا تبال بهم . وقال ابن إسحاق : لما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء أنزل الله تعالى « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر فسوف يعلمون » . والمعنى : اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله، فإن الله كافيك مَن أذاك كما كفاك المستهزئين، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة، وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة . والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن الطُّلاطِلَة ، أهلكهم الله جميعا، قيل يوم بدر فى يوم واحد، لاستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم . وسبب هلاكهم فيما ذكر ابن إسحاق : أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرّ به الأسود ابن المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعمِيَ ووجعت عينه، فجعل يضرب برأسه الجدار . ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنُه فمات منه حَبَنًا . (يقال : حَبِنَ (بالكسر) حَبَنًا وحُبِنَ للفعول عظم بطنه بالماء الأصفر، فهو أحبن، والمرأة حبناء، قاله فى الصحاح) . ومرّ به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه قبل ذلك بسنين، وهو يجرّ سَبَلَه (٢)، وذلك أنه مرّ برجل من خزاعة يريش نَبْلًا له فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش فى رجله ذلك الخدش وليس بشىء ، فانتقض به فقتله . ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فربض به على شِبْرِقَة (٣) فدخلت فى أخمص رجله شوكةٌ فقتلته . ومرّ به الحارث بن الطُّلاطِلَة، فأشار إلى رأسه

(١) آية ٥ سورة التوبة . (٢) السبل (بالتحريك) : الثياب المسبلة ؛ يفعل ذلك كبرا واختيالا .
(٣) الشبرق : نبت حجازى يؤكل ، وله شوك .

فامتخط فيحا فقتله . وقد ذكر فى سبب موتهم اختلاف قريب من هذا . وقيل : إنهم المراد بقوله تعالى : « فَخَرَّ عليهِمُ السَّقفُ مِن فوقِهِم »(٢). شبّه ما أصابهم فى موتهم بالسقف الواقع عليهم؛ على ما يأتى .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٩٦)

هذه صفة المستهزئين . وقيل : هو ابتداء وخبره « فسوف يعلمون » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (٩٧)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾ أى قلبك ؛ لأن الصدر محل القلب . ﴿ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أى بما تسمعه من تكذيبك ورد قولك، وتناله وينال أصحابك من أعدائك .

قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ (٩٨)

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أى فافزع إلى الصلاة، فهى غاية التسبيح ونهاية التقديس؛ وذلك تفسير لقوله : ﴿ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ولا خفاء أن غاية القرب فى الصلاة حال السجود، كما قال عليه السلام : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأخلصوا الدعاء " . ولذلك خص السجود بالذكر .

الثانية — قال ابن العربى : ظن بعض الناس أن المراد بالأمر هنا السجود نفسه، فرأى هذا الموضع محل سجود فى القرآن، وقد شاهدت الإمام بمحراب زكريا من البيت المقدس طهره الله، يسجد فى هذا الموضع وسجدت معه فيها، ولم يره جماهير العلماء .

قلت : قد ذكر أبو بكر النقاش أن ها هنا سجدةً عند أبى حذيفة ويمان بن رِئاب، ورأى أنها واجبة .

---

(١) المخط : السيلان والخروج . (٢) آية ٢٦ سورة النحل .

قوله تعالى : وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

فيه مسألة واحدة ـ وهو أن اليقين الموت . أمره بعبادته إذ قصّر عبادُه في خدمته ، وأن ذلك يجب عليه . فإن قيل : فما فائدة قوله « حتى يأتيك اليقين » وكان قوله : « واعبد ربك » كافيا في الأمر بالعبادة . قيل له : الفائدة في هذا أنه لو قال : « واعبد ربك » مطلقا ثم عبده مرة واحدة كان مطيعا ؛ وإذا قال « حتى يأتيك اليقين » كان معناه لا تفارق هذا حتى تموت . فإن قيل : كيف قال سبحانه « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ولم يقل أبدا ؛ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله : أبدا ؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد . وقد تقدّم هذا المعنى[1] . والمراد استمرار العبادة مدّة حياته ، كما قال العبد الصالح : وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّا . ويترتّب على هذا أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق أبدا ، وقال : نويت يوما أو شهرا كانت عليه الرّجعة . ولو قال : طلقتها حياتها لم يراجعها . والدليل على أن اليقين الموتُ حديثُ أمّ العلاء الأنصارية ، وكانت من المبايعات ، وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما عثمان ـ أعني عثمان بن مَظْعُون ـ فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به" وذكر الحديث . انفرد بإخراجه البخاريّ[2] رحمه الله ! وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما رأيت يقينا أشبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدون له ؛ يعني كأنهم فيه شاكون . وقد قيل : إن اليقين هنا الحق الذي لا ريب فيه من نصرك على أعدائك ؛ قاله ابن شجرة ؛ والأول أصح ، وهو قول مجاهد وقتادة والحسن . والله أعلم . وقد روى جُبير بن نُفير عن أبي مسلم الخَوْلانيّ أنه سمعه يقول إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ما أوحى إليّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إليّ أن سبّح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٣ طبعة ثانية . (٢) راجع صحيح البخاري جـ ٢ ص ١٥١ طبعة بولاق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة النحل

وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وتسمى سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من نعمه على عباده . وقيل : هي مكية غير قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ »[1] الآية ؛ نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أُحُد . وغير قوله تعالى : « وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ »[2] . وغير قوله : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا »[3] الآية . وأما قوله : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا »[4] فمكي ، في شأن هجرة الحبشة . وقال ابن عباس : هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة ؛ وهي قوله : « وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا — إلى قوله — بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[5] .

قوله تعالى : أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ قيل : « أتى » بمعنى يأتي ؛ فهو كقولك : إن أكرمتني أكرمتك . وقد تقدم أن أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء ؛ لأنه آتٍ لا محالة ، كقوله : « وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ »[6] . و « أمر الله » عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله . قال الحسن وابن جُريج والضحاك : إنه ما جاء به القرآن من فرائضه وأحكامه . وفيه بعد ؛ لأنه لم يُنقل أن أحدا من الصحابة استعجل فرائض الله من قبل أن تفرض عليهم ، وأما مستعجلو العذاب والعقاب فذلك منقول عن كثير من كفار قريش

(١) آية ١٢٦ (٢) آية ١٢٧ (٣) آية ١١٠ (٤) آية ٤١ (٥) آية ٩٥ وما بعدها .
(٦) آية ٤٤ سورة الأعراف .

وغيرهم ، حتى قال النضر بن الحارث : « اللَّهُمَّ إن كان هـذا هو الحقَّ مِن عِندك » الآية ، فاستعجل العذاب .

قلت : قد يستدل الضحاك بقول عمر رضى الله عنه : وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم، وفى الحجاب، وفى أسارى بدر، خرّجه مسلم والبخارى . وقد تقدم فى سورة البقرة (١) . وقال الزجاج : هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم، وهو كقوله : « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ » (٢) . وقيل : هو يوم القيامة أو ما يدل على قربها من أشراطها . قال ابن عباس : لما نزلت « ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ » (٣) قال الكفار : إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون ، فأمسكوا وانتظروا فلم يروا شيئا، فقالوا : ما نرى شيئا ! فنزلت « ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » (٤) الآية . فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة ، فامتدت الأيام فقالوا : ما نرى شيئا ! فنزلت « أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ » فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وخافوا ، فنزلت « فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » فاطمأنوا ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار بأصبعيه : السبابة والتى تليها . يقول : أن كادت لتسبقنى فسبقتها . وقال ابن عباس : كان بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ، وأن جبريل لما مرّ بأهل السموات مبعوثا إلى محمد صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر ، قد قامت الساعة .

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى تنزيها له عما يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة ، وذلك أنهم يقولون : لا يقدر أحد على بعث الأموات ، فوصفوه بالعجز الذى لا يوصف به إلا المخلوق ، وذلك شرك . وقيل : « عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى عن إشراكهم . وقيل : « ما » بمعنى الذى ، أى ارتفع عن الذين أشركوا به .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١١٢ طبعة ثانية . (٢) آية ٤٠ سورة هود . (٣) أول سورة القمر .
(٤) أول سورة الأنبياء .

اذا كان « **القرطبى** » سيجلد فى مجلد واحد فتنزع هذه الورقة

مكتبة دار الأنصار
٤٢ شارع قصر النيل - ت ٢٠١٩٤١


Bibliotheca Alexandrina
0415115